جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

من بلاغة التعبير النبوي في الأحاديث التي عجب فيها ربنا –عز وجل- بأعمال العباد

إعداد

د/ أحمد محمد محمد عبد الفتاح
مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

من بلاغة التعبير النبوي في الأحاديث التي عجب فيها ربنا –عز وجل– بأعمال العباد

أحمد محمد محمد عبد الفتاح

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: am2006246@azhar.edu.eg

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة البلاغية التحليلية الأحاديث التي عجب فيها ربنا –عز وجل– بأعمال العباد؛ فلا شك في أن البحث في هذا الموضوع عظيم النفع، بليغ الأثر، محمود العاقبة، والدراسة البلاغية التحليلية لهذه الأحاديث تحاول الكشف عن دقائق المعاني، والنَّفاذ إلى جوهر الخطاب النبوي الشريف، وتسعى لبيان دور الأساليب البلاغية في تجلية المعنى للسامع وطبعه في ذهنه؛ فالبلاغة تشحذ عقله بنور البيان، وتضيء له الطريق في فهم مقاصد الدين، ومن هنا فإن البحث يهدف إلى الوقوف على مواطن الجمال، وطرائق البيان واستنباط وتحليل الأسرار البلاغية في الأحاديث محور البحث، وإبراز المعاني الرقيقة التي تشتمل عليها هذه الأحاديث، والتي تحمل النفس على القرب من الله تعالى من خلال معرفة الأعمال التي ترضيه عز وجل؛ ومن أهم هذه الأعمال: الخوف الحقيقي من الله عز وجل في كل وقت، والإخلاص في العبادة، وقيام الليل، والجهاد في سبيله تعالى، والثبات أمام الأعداء حتى النصر أو الشهادة، وإكرام الضيف، والتسمية عند الشروع في ركوب وسيلة السفر، والحمد والتكبير، والاعتقاد والتسليم بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وحسن التوبة والرجوع إلى الله، والتغلب على الشهوات خصوصًا في مرحلة الشباب...إلخ.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، التعبير النبوي، الأحاديث، عجب ربنا، أعمال العباد.

From the eloquence of the Prophetic expression in the hadiths in which our Lord –the Almighty- was amazed by the deeds of the servants.

Ahmed Mohamed Mohamed Abdel Fattah
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Zagazig, Al-Azhar University, Egypt.
Email: am2006246@azhar.edu.eg

Abstract:
This research examines, through an analytical rhetorical study, the hadiths in which our Lord -Almighty- was wonder by the deeds of His servants. There is no doubt that research on this topic is of great benefit, profound in its impact, and laudable in its consequences. The analytical rhetorical study of these hadiths attempts to uncover the subtleties of their meanings and penetrate the essence of the noble prophetic discourse. It seeks to demonstrate the role of rhetorical techniques in clarifying meaning to the listener and imprinting it in their minds. Eloquence sharpens the mind with the light of eloquence and illuminates the path to understanding the objectives of religion. Hence, this research aims to identify the areas of beauty and methods of eloquence, deriving and analyzing the rhetorical secrets in the hadiths, the focus of the research. It also aims to highlight the delicate meanings contained within these hadiths, which draw the soul closer to God Almighty through knowledge of the deeds that please Him. Among the most important of these deeds are: true fear of God Almighty at all times, sincerity in worship, standing in prayer at night, striving in His cause, steadfastness in the face of enemies until victory or martyrdom, honoring guests, saying the name of God when embarking on a means of travel, praising and glorifying God, believing and submitting that only God forgives sins, sincere repentance and returning to God, overcoming desires, especially during youth, etc.

Keywords: Eloquence, prophetic expression, hadiths, our Lord is amazing, the deeds of servants.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل، وتجاوز لهم عن كثير الزلل، وأفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد في الأولين والآخرين، خصّه ربنا -عز وجل- بكمال الفصاحة بين البدو والحضر، وأنطقه بجوامع الكلم، فأعجز بلغاء ربيعة ومضر، وآتاه بحكمته أسرار البلاغة وفصل الخطاب، ومنحه الأسلوب الحكيم في جوامع كلمه، وخص السعادة الأبدية لمقتضى آثاره...، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... وبعد:

فإن علوم اللغة العربية لا سيما البلاغة وُجدت لخدمة القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة؛ ولهذا فإن العلماء القدامى والمحدثين عكفوا على ربط دراساتهم البلاغية بكتاب الله -تعالت صفاته- وحديث رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ والبلاغة النبوية تمتاز بأنها لا مثيل لها في كلام الفصحاء؛ فهي تجعل البليغ يقف عندها ويخصها بالإعجاب؛ لما تميزت به من خصائص وسمات أسلوبية، وألفاظها قوية تعبر عن المضمون؛ إذ تعد أقوى وسائل الاستشهاد في مجال الدراسات المختلفة بعد كتاب الله تعالى.

ولما كانت لدي رغبة الكتابة في بلاغة التعبير النبوي، وطوف بي العقل ما طوف لأبحث عن موضوع بحث في السنة النبوية المطهرة رجوت الله -جل وعلا- أن أجد لنفسي فكرة أطرقها تنفعني في الدنيا والآخرة، فأخذت أبحث حتى شاءت إرادته تعالى أن ألهم النظر في موضوع لم يتناوله قلم من قبل -في حدود علمي- بالدراسة البلاغية التحليلية، فهُديت إلى اختيار الأحاديث التي عجب فيها ربنا -عز وجل- بأعمال العباد لتكون موضوعًا لبحثي؛ وعلى ذلك فإنني سأتناول -بمشيئة الله تعالى- الأحاديث المستمدة من كتب السنة الموثوقة

المجمع على صحتها عند أهل العلم، والتي ورد فيها لفظ العجب مضافًا إلى الذات الإلهية؛ لتسليط الضوء على هذه الأعمال التي عظمت عنده –جل جلاله–، والترغيب في القيام بها.

والذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع بالإضافة إلى ما سبق: ربط الدراسات البلاغية بأحاديث الرسول –صلى الله عليه وسلم–، والبحث في وقائع السيرة النبوية العطرة، ودراسة أحداثها بعمق لاستخراج العبر والدروس التي تنفعنا اليوم في واقعنا المعاصر؛ فالموضوع جد مهم لاتصاله بكل مسلم؛ فالمسلم يحتاج إلى معرفة ما يرضي الله –تعالى– ورسوله –الكريم– للعمل به حتى يفوز بالجنة، وقد لمست أن الأحاديث التي عجب فيها ربنا –عز وجل– بأعمال العباد من أهم ما يحتاج إلى فقهه كل مسلم، كيف والغاية نيل السعادة في الدارين بالعمل بما جاء به سيد الثقلين سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–، فالأحاديث وحي أوحاه الله –تعالى– إليه، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣–٤]، ولما في التعرف على دقائق هذه الأحاديث من فوائد تقوم عليها أمور حياتنا، فالاهتمام بهذا النوع من الأحاديث ترغيبًا للناس وتحبيبًا إلى الله بهذه الأعمال.

فأهمية هذا الموضوع تنبع من كونه متصلًا بنصوص السنة النبوية الشريفة، ولما في الأحاديث محور هذا البحث من قضايا دينية ودنيوية تنفعنا في الدنيا والآخرة، ومن ثمّ الرغبة في تنبيه الأذهان كي تهُبّ من سُباتها وغفلتها إلى عمل ما يرضي الله –عز وجل–؛ فلا شك في أن البحث في هذا الموضوع عظيم النفع، بليغ الأثر، محمود العاقبة، والدراسة البلاغية التحليلية لهذه الأحاديث تحاول الكشف عن دقائق المعاني، والنَّفاذ إلى جوهر الخطاب النبوي الشريف، وتسعى لبيان دور الأساليب البلاغية في تجلية المعنى للسامع وطبعه في ذهنه؛ فالبلاغة تشحذ عقله بنور البيان، وتضيء له الطريق في فهم مقاصد الدين.

ومن هنا فإن البحث يهدف إلى الوقوف على مواطن الجمال، وطرائق البيان واستنباط وتحليل الأسرار البلاغية في الأحاديث محور البحث، وإبراز المعاني الرقيقة التي تشتمل عليها هذه الأحاديث، والتي تحمل النفس على القرب من الله تعالى، وذلك من خلال معرفة الأعمال التي ترضيه عز وجل.

وتدور أسئلة البحث حول: ما هي الأعمال التي عجب منها ربنا عز وجل؟ أو متى يرضا الله عن عباده؟ وإلى أي مدى تمكننا الدراسة البلاغية للأحاديث محور البحث من الوقوف على دقائق المعنى، وما هي أبرز السمات والخصائص البلاغية في الأحاديث التي عجب فيها ربنا عز وجل بأعمال العباد؟.

وقبل البدء بكتابة هذا البحث اجتهدت في البحث عن دراسات بلاغية أفردت الكتابة في موضوع الأحاديث التي عجب فيها ربنا -عز وجل- بأعمال العباد في السنة النبوية فلم أجد، إلا أنني وجدت بعض الدراسات -غير بلاغية- تحدثت عن أحاديث إعجابات المولى عز وجل، منها:

١- الإعجابات في ضوء السنة النبوية، إعداد/ رأفت بن عبد الله أبو شاويش، إشراف الدكتور/ رائد بن طلال شعت، قدم هذا البحث استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الحديث الشريف وعلومه من كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢- إثبات صفة العجب لله تعالى، د/ فهد بن عيسى بن راشد الدهمشي مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية، العدد: ٧، ٢٠١٩م، جامعة الأمير سلطان بن عبد العزيز، والهدف من البحث كما ذكر صاحبه: تقرير عقيدة أهل السنة في صفة العجب، وبيان التأويلات الباطلة والرد عليها.

٣- أحاديث (عجب ربكم) دراسة حديثية (جزء في تعجب ربنا من بعض أعمال عباده من الطاعات) جمع وإعداد د/ عماد علي عبد السميع حسين، مجلة

كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، العدد الثامن والثلاثون، الجزء الرابع، ٢٠٢٠م.

ومن عناوين هذه الدراسات يتبين أنها تتحدث عن صفة العجب وإثباتها في حق الله تعالى؛ لذا فهي بعيدة كل البعد عن موضوع بحثي؛ فمجال دراستي وتناولي للموضوع يقوم على التحليل البلاغي للأحاديث محور البحث.

وقد آثرت أن تكون دراستي للأحاديث محور البحث كل حديث في بحث مستقل؛ فلم أر من المناسب تقسيم دراسة الحديث في أكثر من مبحث؛ فطبيعة هذه الدراسة التحليلية لا تتحمل هذا التقسيم، ودراسة الحديث كاملًا في سياقه دون تجزئة له ولا تقطيع أولى؛ حتى لا يتفتت النظم، ويضيع كثير من معالم الأساليب البلاغية وجمالها المستمد من السياق الواردة فيه؛ فهي دراسة تحليلية لكل من المفردات والجمل والتراكيب كل في سياقها؛ لما للسياق من أثر في كشف المعنى والدلالة عليه؛ ولذا اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في مقدمة وتمهيد، وسبعة مباحث، وخاتمة، وثبت المصادر والمراجع.

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث، والمنهج المتبع.

التمهيد وفيه: المقصود بالعجب، ومعناه في حق الله تعالى.

المبحث الأول: الإخلاص في العبادة، والخوف من الله تعالى. حديث: (يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظيّة الجبل يؤذن بالصلاة ويصلي...).

المبحث الثاني: فضل صلاة التهجد، والجهاد في سبيل الله تعالى. حديث: (عجب ربنا عز وجل من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حيِّه وأهله إلى صلاته...ورجل غزا في سبيل الله عزّ وجلّ...حتى أُهريق دمه...).

المبحث الثالث: إكرام الضيف. حديث: (...عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة).

المبحث الرابع: سعة رحمة الله ومغفرته لعباده. حديث: (...إن ربَّك يعجَبُ من عبده إذا قال: اغفرْ لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذّنوب غيرك).

المبحث الخامس: الترغيب في التوبة، والجهاد في سبيل الله. حديث: (إنّ الله عزّ وجلّ يعجبُ من رجلين يقتل أحدهما صاحبه...ثُمّ يدخلان الجنة).

المبحث السادس: استعظام الله لشأن الفئة المقيدة بالسلاسل ورضاه عنهم. حديث: (عَجِبَ الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل).

المبحث السابع: نشأة الشاب على الخير واجتناب الشر. حديث: (إنّ الله ليعجب من الشّابّ ليست له صبوة).

وجاءت الخاتمة لتكشف عن أهم النتائج التي انتهت الدراسة إليها.

ثم المصادر والمراجع.

أما عن منهج الدراسة؛ فقد اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على التحليل، والتأويل، والتعليل، مما ساعد على إظهار أسرار التعبير بالأساليب البلاغية المختلفة، مع بيان دور الألفاظ وأثرها في تأدية المعنى المراد من خلال الأحاديث محل الدراسة، وقمت بالمزاوجة بين روايات الحديث حسبما اقتضى المقام ذلك؛ فهناك روايات مجملة الألفاظ تحتاج إلى توضيح، ويكون هذا التوضيح بارزًا في الرواية الأخرى، ومن ثمّ إظهار أثر جودة التراكيب الكامنة في أحاديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم- في فهم مدلول الحديث.

وأحب أن أشير هنا إلى أنني قد قصرت هذه الدراسة على المسائل البلاغية دون الحديث أو التشعب إلى القضايا الأخرى كالمعركة الكلامية بين الأشاعرة والسلف وغيرهم حول مسائل الصفات؛ فتلك معركة تكاد لا تنتهي، ولذا جنبت هذه الدراسة كثيرًا من المسائل التي لا تمت إلى البلاغة بسبب؛ إلا أنني سوف أوضح -بمشيئة الله تعالى- المقصود بالإعجاب في حق الله تعالى في التمهيد؛ لأن القصد -كما ذكرت سابقًا- الدراسة البلاغية التحليلية للأحاديث محور البحث؛ للكشف عن دقائق المعاني، والنَّفاذ إلى جوهر الخطاب النبوي

الشريف، ومن ثمّ الوقوف على جملة من الأعمال الصالحة التي تُعجب الله –عز وجل– وترضيه من عباده؛ حرصًا على استمرار العبد في فعل هذا العمل الذي يُرضي محبوبه ويعجبه، وحتى يستحضر المؤمن حالة إعجاب المولى –عز وجل– بعبده ورضاه عن عمله فتزداد معرفته بربه، ويدوم اتصاله بخالقه.

وبعد: فهذا ما سعيت إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تم ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققت مرادي، وأصبت مبتغاي، وذلك تفضل منه –سبحانه– وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلت وحاولت، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي –أيضًا– أني سعيت له واجتهدت، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين.

د/ أحمد محمد محمد عبد الفتاح
مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

التمهيد

المقصود بالعجب، ومعناه في حق الله تعالى

المقصود بالعجب:

العَجَب والعُجْب: إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده، والعجب والشيء المُعجب هو: الحسن، وأعجبه الأمر: سرّه، والتَّعجُّب: أن ترى الشيء يُعجبك، تظنّ أنك لم تر مثله، قال الزجاج: أصل العجب في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقلّ مثله، قال: قد عجبت من كذا[(١)]؛ فالتعجّب: "معنًى يحصل عند المتعجِّب عند مشاهدةِ ما يُجْهَل سببُه، ويقل في العادة وجودُ مثله، وذلك المعنى كالدَّهَش والحَيْرة، مثالُ ذلك أنّا لو رأينا طائرًا يطير لم نتعجّب منه لجَرْي العادة بذلك، ولو طار غيرُ ذي جناح لوقع التعجُّب منه؛ لأنه خرج عن العادة، وخفي سببُ الطيَران"[(٢)].

وذكر صاحب المصباح المنير أن التعجب: "يستعمل على وجهين: أحدهما ما يحمده الفاعل، ومعناه: الاستحسان والإخبار عن رضاه به، والثاني ما يكرهه، ومعناه: الإنكار والذم له"[(٣)].

---

(١) ينظر: لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ)، تحقيق/ ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد (دار التوفيقية للطباعة): عجب.

(٢) شرح المفصل للزمخشري، تأليف/ يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م): ٤/ ٤١١.

(٣) كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف العلم العلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المتوفى: ٧٧٠هـ (المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٣م): ٥٣٧.

وفي تاج العروس: "ونقل شيخنا من حواشي القاموس القديمة حاصل ما ذكره أهل اللغة في هذا المعنى: أن التعجب حيرة تعرض للإنسان عند سبب جهل الشيء، وليس هو سببًا له في ذاته، بل هو حالة بحسب الإضافة إلى من يعرف السبب ومن لا يعرفه، ولهذا قال قوم: كلّ شيءٍ عجبٌ، قاله الرّاغب: وبعضهم خص التّعجب بالحسن فقط، وقال بعض أهل اللغة: يقال أعجب فلانٌ بنفسه وبرأيه فهو معجب بهما، والاسم العجب، ولا يكون إلا في المستحسن"(١)؛ أي: هو الاستحسان للشيء والميل إليه والتعظيم.

وعند حديثه عن الفرق بين العجب والكبر قال العسكري: "العجب بالشيء شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول هو معجب بفلانة إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه إذا كان مسرورًا بخصالها، ولهذا يقال أعجبه كما يقال سر به، فليس العجب من الكبر في شيء"(٢).

هذا، وبعد التأمل والنظر في التعريفات اللغوية الآنفة الذكر، وأقوال بعض العلماء يمكن القول بأن الإعجاب هو: شعور داخلي تنفعل به النفس حين تستعظم أمرًا نادرًا أو لا مثيل له وخرج عن العادة مثله، أو خفي السبب، أو هو: حالة من السرور تطرأ على الإنسان لأقوال أو لأفعال مستحسنة للنفس صادرة من الغير خرجت عن حدِّ أشكالها ونظائرها، وخفي سبب ذلك، أما المألوف أو ما لا زيادة فيه أو ما ظهر سببه فإنه لا يُتعجب منه، وقد يترتب على هذا ظهور آثار خارجية كالتي تبدو على الوجه من العبوسة أو الطلاقة على قدر تأثر النفس به ولا يعرف السبب، فمتى ما عرف بطل التعجب.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج (مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م): عجب.

(٢) الفروق اللغوية للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه/ محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م): ٢٤٨.

معنى العجب في حق الله تعالى:

اتضح مما سبق أن الإعجاب حالة من الفرح والسرور والاستحسان من شيء يراه أو يسمعه الإنسان من غيره، ولم يكن يعلمه من قبل، وهذا المعنى ينطبق على الناس الذين تخفى عليهم الأمور ولا ينطبق على الله -عز وجل-، فهذا عيب ونقص، والحق سبحانه وتعالى منزه عن العيوب والنواقص؛ فالتعجب انفعال يصدر من النفس البشرية تجاه أمر تستعظمه وتجهل سببه، ولا يجوز أن ينسب هذا إلى الله على وجه الحقيقة؛ فسبحانه لا يخفى عليه شيء، وهو علام الغيوب، وعالم بأسرار النفوس، ونسبة أساليب التعبير عن معنى التعجب إلى الله لا تعني أنه يتعجب؛ لكونه -سبحانه وتعالى- يعرف أسباب هذه الأحداث، ويعلم سبحانه ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو خالق الخلق وخالق أفعالهم، فلا يليق بجلال الله وكماله أن نفهم أن هذه الصفة تستلزم في حقه سبحانه ما تستلزمه في حق البشر من الجهل والدهش أو الحيرة...إلخ؛ فسبحانه وتعالى بكل شيء عليم، وعلى ذلك لا يجوز عليه أن لا يعلم سبب ما يعجب منه، بل يتعجب سبحانه من الشيء لخروجه عن نظائره تعظيمًا له، قال الهرّاس: "وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاءٍ في الأسباب أو جهل بحقائق الأمور كما هو الحال في عجب المخلوقين؛ بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه"(١).

(١) شرح العقيدة الواسطية، ويليه ملحق الواسطية، تأليف/ محمد بن خليل حسن هرّاس (المتوفى: ١٣٩٥هـ)، ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق/ علوي بن عبد القادر السقاف، (دار الهجرة للنشر والتوزيع، الخبر، ط الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م): ١/ ١٧٠.

وإسناد العجب إلى الله تعالى "قد تأوله بعضهم زاعمًا أن العجب مستحيل على الله، وليس بصواب فإن صفات الله –عز وجل– لا تشبه صفات المخلوقين، بل يجب الإيمان بها وردّ علمها إلى الله، ولا يلزم من ذلك تشبيه ولا محظور لأن سبيل الصفات سبيل الذات، فكما أن الإنسان يؤمن بذات الله ولا تشبهها الذوات؛ فكذلك صفاته لا تشبهها الصفات ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالحق إثبات ما أثبته الله ورسوله، ونفي ما نفاه الله ورسوله، واعتقاد تنزيه الله –تعالى– عن مشابهة الحوادث لا في ذاته ولا في صفاته، وهذه طريقة سلف الأمة الصالح: الإيمان بالنصوص ورد علمها إلى الله تعالى"(١).

إذًا فالمقصود بالإعجاب في حق الله –سبحانه تعالى– غير المقصود بالإعجاب في حق البشر؛ والإعجاب صفة من صفاته –جلا جلاله– الثابتة له بالكتاب والسنة؛ قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] قال الطبري: "اختلفت القرّاء في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قراء الكوفة: ﴿بلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ بضم التاء من عجبت، بمعنى: بل عظم عندي وكبر اتخاذهم لي شريكا، وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون، وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة (بَلْ عَجِبْتَ) بفتح التاء بمعنى: بل عجبت أنت يا محمد ويسخرون من هذا القرآن، والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار، فبأيَّتهما قرأ القارئ فمصيب، فإن قال قائل: وكيف يكون مصيبًا القارئ بهما مع اختلاف معنييهما؟ قيل: إنهما وإن

(١) شرح سنن النسائي المسمى «شروق أنوار المنن الكبرى الإلهية بكشف أسرار السنن الصغرى النسائية»، تأليف/ محمد المختار بن محمد بن أحمد مزيد الجكني الشنقيطي (المتوفى في المدينة: ١٤٠٥هـ)، (مطابع الحميضي (طبع على نفقة أحد المحسنين)، ط الأولى، ١٤٢٥هـ): ٤/ ١٣٦٦.

اختلف معنياهما فكل واحد من معنييه صحيح، قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسَخِر المشركون بما قالوه"(١).

وكذلك أثبتها له رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- في كثير من أحاديثه النبوية؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "عَجِبَ الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل"(٢).

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظيّة الجبل يؤذّن بالصلاة ويصلي، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة"(٣).

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق/ أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م): ٢١/ ٢٣.

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط الأولى، ١٤٢٢هـ): كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل: رقم/ ٣٠١٠، جزء/ ٤، صـ ٦٠.

(٣) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، تأليف/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق/ مكتب تحقيق التراث، (دار المعرفة، بيروت، ط الخامسة، ١٤٢٠هـ): باب: الأذان لمن يصلي وحده، رقم/ ٦٦٥، جزء/ ٢، صـ ٣٤٨. وفي المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، تأليف/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، (مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) كتاب الأذان، باب الأذان لمن يصلي وحده، رقم/ =

وعلى ما سبق من تفسير العجب في حق الله –تعالت صفاته– فإنني سأتناول –بمشيئته تعالى– الأحاديث النبوية الموثوقة المجمع على صحتها عند أهل العلم، والتي ورد فيها لفظ العجب مضافًا إلى الذات الإلهية لبيان أن هذه الأعمال عظمت عند الله تعالى، وليس تعجبه لظهور سبب خفي، ولا أن تعجبه يشبه التعجب عند خلقه؛ فإعجابه –تعالى– لعمل ما يدل على رضاه عنه ومحبته له، وعجبه سبحانه تعجب استحسان لا تعجب اندهاش، فهنيئًا لمن عجب الله له.

=

٦٦٦، جزء/ ٢، صـ ٢٠، وما بعدها.

المبحث الأول

الإخلاص في العبادة، والخوف من الله تعالى. حديث: (يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظيّة الجبل يؤذن بالصلاة ويصلي...).

عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظيّة الجبل يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة"(١).

هذا الحديث مثال من الأمثلة التي ترشدنا إلى الأعمال التي تعجب المولى -عز وجل- من الإخلاص في العبادة، واستشعار رقابته -تعالى- في السر والعلن، والخوف الحقيقي منه جل وعلا؛ فهذا راعي الغنم في عمله الشاق وفى بعده عن أنظار الناس لا ينسى واجبه نحو ربه؛ فقد صادف وقت العبادة وزمانها في مكان منعزل قاص عن الناس، ويعلم أنه لا يراه أحد إلا الله الذى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فيخاف أمره ونهيه ولومه، ومكانه هذا لا رياء فيه؛ فخلصت نيته وخاف ربه، فيقوم لأداء حق الله عليه؛ إعظامًا لهذا الحق، وإخلاصًا له سبحانه وتعالى، وإلا فما الدافع له وهو في هذه الحال؟! فيؤذِّن للصلاة ويؤديها مخلصا للّه وحده راجيًا ثوابه خائفًا من عقابه، فهذا الموقف يرضي الله -سبحانه وتعالى- ويؤجر صاحبه عليه؛ إنه موقف مراقبة لله وإخلاص له؛ لا يحمل صاحبه عليه إلا شهوده حق الله عليه، وخوفه المقام بين يديه؛ فالحديث يرشدنا إلى أن الإنسان المسافر يؤذن للصلاة ولو كان وحده،

(١) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي: باب الأذان لمن يصلي وحده، رقم/ ٦٦٥، جزء/ ٢، صـ ٣٤٨. وفي المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، كتاب الأذان، باب الأذان لمن يصلي وحده، رقم/ ٦٦٦، جزء/ ٢، صـ ٢٠.

وكون الإنسان يؤذن ويقيم الصلاة يدل على أنه يخاف الله –جل وعلا– لذا يغفر له سبحانه ذنوبه ويدخله الجنة جزاءً على ذلك العمل الصالح الذي عمله.

وللتعبير عن هذه المعاني جاء البيان النبوي حافلًا بالأساليب البلاغية المؤثرة في المتلقي، والتي تحثه على مراقبة الله –تعالى– وخشيته في السر والعلن؛ فالمولى –عز وجل– يتباهى في هذا الحديث بحال العبد يقيم الصلاة برأس الجبل خوفًا من عقابه وطمعًا برضاه؛ فقوله: (يعجب ربك)؛ أي: يرضى ربك عن هذا الفعل، أو يعظم هذا الفعل عند ربك، ومجيء قوله: (يعجب) بصيغة المضارعة يفيد تجدد الأمر واستمراره، ويفتح الباب أمام كل الناس للإسراع إلى فعل هذا العمل الذي يعجب المولى جل وعلا، والتعبير بكاف الخطاب للواحد، لعله –صلى الله عليه وسلم– كان يخاطب أحد الصحابة، ويحتمل أن يكون الخطاب عامًا من رسول اللَّه –صلى اللَّه عليه وسلم– لكل واحد من أمته، فيكون الخطاب لكل مؤمن كأنه بمفرده؛ فكل مؤمن يسمع هذا وكأن النبي –صلى الله عليه وسلم– يخاطبه هو دون غيره، وقوله: (من راعي غنم) الجار والمجرور متعلق بقوله (يعجب)، أي من حاله وفضله عند الله، ولعل ليس المقصود راعي الغنم بذاته بل كل من صلى وحافظ على الصلاة فإنه بذلك يرضا عنه المولى –عز وجل– وإنما خص راعي الغنم بالذكر؛ لأنه برغم انشغاله بقطيعه ومتابعتهم إلا أنه يترك هذا كله عندما تحضر الصلاة يؤذن ويقيم لأدائها، وكذلك كل من يترك ما يشغله عند حضور الصلاة فإن الله يعجب من صنعه هذا، ويرضى عنه، وخص كون راعي الغنم في (رأس شظية الجبل) للإشارة إلى أن الراعي في مكان مرتفع جدًا عن الناس؛ فشظية الجبل: القطعة المرتفعة من رأس الجبل، والفلقة من كل شيء[1]، فالرعيان –غالبا– يبعدون من

(١) لسان العرب: شظي.

المدن مسافة ليست بالقصيرة، فإذا أذنوا وصلوا حصلوا على هذا الثواب العظيم؛ ففي مثل هذه المواطن تنقطع الوساوس التي تقود إلى الرياء، ومن ثمّ فإيقاع الصلاة فيها شأن أهل الإخلاص دون غيرهم؛ ولأن هذا المكان في الغالب من مواطن الخوف والفزع، فالإقبال على الصلاة فيه أمر لا يناله إلا من بلغ في التقوى إلى حدّ يقصر عنه كثير من أهل الإقبال والقبول، وذكر المكان في الحديث يسهم في التذكير والتنبيه على أهمية ذكر الله في هذه المواضع التي يغلب عليها العمل الحركي والجسدي، والتي قد يغفل الإنسان عن ذكر الله فيها.

ويباهى الله -عز وجل- ملائكته ولمن عنده في الملأ الأعلى بفعل ذلك الراعي، فيقول: (انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ)، فالأمر في قوله: (انظروا) خرج عن معناه الأصلي ليفيد التباهي؛ فالله -عز وجل- يتباهى بعبده التقي الذي يعظم أمر الصلاة، وبالتأمل في كلمة (انظروا) يتبين أنها قد ساعدت بإيقاعها وجرسها في الدلالة على الإعجاب والتباهي؛ يبدو ذلك جليًا في صوت (الظاء) فمن صفاته الإطباق؛ "والإطباق يعد سمة مميزة للظاء، وهو يصور ارتفاع اللسان نحو الأعلى عند الإطباق مُشكلًا ما يشبه القُبة أو المظلة؛ حيث يكون الطّبق على اللسان كالغطاء له"[(١)]، فهذا الفعل يحمل في تنغيماته دلالة المباهاة؛ فالله -سبحانه وتعالى- يتباهى بصنيع راعي الغنم الذي يعظم أمر الصلاة بالنداء.

والتعبير بقوله: (عبدي) المضافة لله -تعالى- فيه مزيد تشريف لهذا العبد؛ والعبد كما يقول ابن منظور: "الإنسان حرًا كان أو رقيقًا، يُذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه جل وعز..."[(٢)]، فكلمة (عبد) فيها كمال الخضوع لله -عز وجل-

(١) الأصوات اللغوية (رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية)، تأليف الأستاذ الدكتور/ سمير شريف إستيتية، (دار وائل، عمان، الأردن، ط الأولى، ٢٠٠٣م): صـ ٢٩.

(٢) لسان العرب: عبد.

وهذا تشريفٌ للعبد ووسام له، وكونها مُضافة إلى ياء المتكلم العائدة إلى المولى –جل وعلا– فهذا –أيضًا– فيه مرتبة أخرى من التشريف ورفع القيمة والمكانة لهذا العبد.

وقد تعاضد ضمير الملكية المتصل بلفظ العبد في قوله: (عبدي) مع اسم الإشارة (هذا) الدال على القريب؛ لبيان قرب هذا العبد من الله –تعالى– ورضاه سبحانه وتعالى عنه؛ فالغرض من التعريف باسم الإشارة هو زيادة التقرير، وقد قام اسم الإشارة بتجسيد المشار إليه الذي يؤذن ويقيم للصلاة في رأس الجبل بعيدًا عن أعين الناس ابتغاء مرضاة الله فجعله حاضرًا ماثلًا أمام عين المتلقي، وتناغم مع ذلك التعبير بصيغة المضارع في: (يؤذن ويقيم الصلاة يخاف) فالمضارع يجعل المعاني مصورة، وكأنها مشاهدة أمام الأعين، كما أنه يكشف عن تكرار هذا العمل من راعي الغنم؛ "فالفعل المضارع هو الفعل المُخَصَّب بروح الحركة، ويحوط بنا وكأننا نعيش في أركانه، ويمثل أمامنا فنكاد نلمس أطرافه، ويقترب منا فنكاد نسمع وقع أقدامه"[(١)]، وقوله: (يؤذن) يدل بصيغته، وبنائه المضعف، ويُوحى بجرسه على تكثير الفعل وتكريره، يقال: أذَّن فلان تأذينًا وأذانًا إذا أكثر الإعلام بالشيء[(٢)]، فكما هو واضح من السياق أن المُؤذّن كرر الفعل كلما أراد الصلاة؛ بغية الإعلام بدخول الوقت، وقد أشار ابن عاشور إلى هذا المعنى في قوله: "وأَذّنَ بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل، أي أكثر الإخبار بالشيء، والكثرة تحصل بالتكرار وبرفع الصوت القائم مقام التكرار"[(٣)]، وبالإضافة لمعنى التكثير الذي دلت عليه هذه الصيغة فإنها

(١) بديع التراكيب في شعر أبي تمام، دكتور/ منير سلطان (منشأة المعارف بالإسكندرية، ط الثالثة، ١٩٩٧م): ٤٦٣.

(٢) ينظر: لسان العرب: أذن.

(٣) تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، تأليف/ محمد الطاهر بن محمد =

دلت على اللزوم رغم التضعيف، ولعل السر من فائدة الأذان مع كونه وحده هو: أن يشهد له كل رطب ويابس، ويغفر له مدى صوته؛ لما ثبت عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (المؤذن يغفر له بمد صوته ويشهد له كل رطب ويابس)[(١)]، وفي "تأذينه إعلام الجن والملائكة بدخول الوقت؛ فإن لهم صلاةً أيضًا، وإنما لم يذكر الإقامة؛ لأنها للإعلام بقيام الصلاة، وليس أحد يصلي خلفه حتى يقيم لإعلامه"[(٢)]، وروى البخاري في صحيحه أن أبا سعيد الخدري قال لعبد الرحمن بن صعصعة: "إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك، أو باديتك، فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه: «لا يسمع مدى صوت المؤذن، جن ولا إنس ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة»، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم"[(٣)].

ويدل قوله: (يخاف مني) على أنه لا يؤذن ولا يصلي ليراه أحد، بل يفعل هذا لخوف عذاب الله وطمع جنته، وجاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لشبه

=

ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م): ١٧/ ١٧٥.

(١) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي: باب رفع الصوت بالأذان: رقم/ ٦٤٤، جزء/ ٢، صـ ٣٤٠.

(٢) شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، تأليف/ محمَّدُ بنُ عزِّ الدِّينِ عبدِ اللطيف بنِ عبد العزيز بن أمين الدِّين بنِ فِرِشْتَا، الرُّوميُّ الكَرمانيّ، الحنفيُّ، المشهور بـ ابن المَلَك (المتوفى: ٨٥٤هـ)، تحقيق ودراسة/ لجنة مختصة من المحققين بإشراف/ نور الدين طالب، (إدارة الثقافة الإسلامية، ط الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م): ١/ ٤٠٦.

(٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، رقم/ ١٢٥، جزء/ ١، صـ ١٢٥.

كمال الاتصال؛ فالكلام السابق أثار في النفس تساؤلًا هو: ما السبب الذي يجعله يؤذن ويقيم الصلاة وهو في مكان منعزل؟ فكان الجواب: (يخاف مني...).

ويفصح قوله: (قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة) عن جزاء من يعمل هذا العمل؛ فغفران الذنوب ودخول الجنة هو مبتغى الإنسان، وجاء هذا المعنى مؤكدًا بحرف التحقيق (قد) الداخل على الفعل الماضي (غفر)؛ ليحقق المعنى في ذهن السامع، ومن ثمّ ترغيبه في فعل هذا العمل، وفي الكلام حذف؛ حيث حذف مفعول الفعل (غفرت) لدلالة السياق عليه؛ فتقدير الكلام: (قد غفرت لعبدي ذنبه)، فلا يذكر الغفران إلا وكان المطلوب غفران الذنوب، ويُفهم من قوله: (قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة) أن العبد مهما بلغ من عمل الطاعات فإنه لا يخلو من هفوات يؤاخذ عليها؛ فهذا العبد الذي لم يذكر الله من شأنه إلا هذا الخير فإنه لا يخلو من هفوات ومؤاخذات، لكن الله الغفور الرحيم يغفرها له ولا يؤاخذه عليها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، ويدخله الجنة؛ فإنها دار المثوبات.

ومن الملاحظ في هذا الحديث تكرار كلمة (عبدي) مرتين، وجاءت مضافة إلى ياء المتكلم، وفي هذا دلالة على رحمة الله –تعالى– بعباده وعطفه عليهم وتحبّبه إليهم، وفيه زيادة إجلال الله للعبد الذي يرجو رحمته، وفيه إشارة إلى أهمية العبادة ومكانتها عند الله –تعالى– هذا من جهة، ومن جهة أخرى بيان ضعف العباد وحاجتهم إلى الله –تعالى–، فلا ملجأ منه سبحانه إلا إليه، وتكرار هذه الكلمة جاء منسجمًا مع السياق العام للحديث؛ فذكر الصلاة تقوية لمعنى العبودية التي يعززها التكرار؛ لأنها عمود الدين، وهي أول ما يسأل عنها العبد يوم القيامة، وبهذا ينسجم التكرار في هدفه مع دلالة السياق، وهذا مما يساهم في تحقيق ترابط النص؛ "لأن تكرار الكلمة داخل النص يشد النص ويزيد من حَبكِه؛ وذلك لأن الكلمة المكررة عند أول ورود لها تضرب بأوتادها داخل النص، ثم

ترمي بشباكها في بنيته، ومع كل تكرار تتنوع دلالتها ويزداد تنامي النص وتتوالد أفكاره، وبهذا تتجلى أهمية التكرار في تحقيق الترابط بين أجزاء النص"[1].

ولا يخفى ما في تكرار كلمة (عبدي) من رد للعجز على الصدر؛ مما يؤكد المعنى ويقرره في ذهن من يلقى إليه الكلام، وتكمن بلاغته في دلالته على معرفة آخر الكلام، وارتباطه بأوله، ويتناغم مع تكرار كلمة (عبدي) في هذا الحديث تكرار صاحب الحال؛ حيث تكرر ثماني مرات في قوله: (راعي غنم)، وضمير مستتر في قوله: (يؤذن، يصلي، يقيم، يخاف)، وقوله: (عبدي) المكررة، والضمير المتصل في قوله: (أدخلته)؛ فالأحوال كلها ارتبطت بتباهي الله – سبحانه وتعالى– بعبده، والعجب من حاله الذي توضحه الجمل (يؤذن، ويقيم الصلاة، ويخاف مني) وهي جمل فعلية فعلها مضارع –تدل على التجدد والاستمرارية– فاعلها ضمير مستتر تقديره: هو يعود إلى العبد الذي نال مغفرة الله تعالى، إذًا فالتكرار جاء لهدف بلاغي يوضحه سياق الحديث ويجليه، فضلًا عن الإيقاع الذي يتناغم مع حالة الإعجاب والرضا، وحالة الاتساق والانسجام الشائعة في كامل أجزاء الحديث.

(١) أثر التكرار في التماسك النصي مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د/ خالد المنيف، للباحثة/ نوال بنت إبراهيم الحلوة (جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها) ع ٨، صـ ٢٩.

المبحث الثاني

فضل صلاة التهجد، والجهاد في سبيل الله تعالى. حديث: (عجب ربنا عز وجل من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حيِّه وأهله إلى صلاته...ورجل غزا في سبيل الله عزّ وجلّ...حتى أُهريق دمه...).

عن ابن مسعود عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "عجب ربنا عز وجل من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحيِّه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيِّه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي وشفقةً ممّا عندي، ورجل غزا في سبيل الله عزّ وجلّ فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمه رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي، فيقول الله عزّ وجلّ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي، ورهبةً مما عندي حتى أُهريق دمه"(١)(٢).

وفي رواية أخرى: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع فرجع حتى أُهريق

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف/ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (١٦٤ – ٢٤١هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد ، وآخرون، إشراف د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م): رقم ٣٩٤٩، جزء/ ٧، صـ ٦١، وما بعدها.

(٢) وطائه: الوطيء من كل شيء: ما سَهُلَ ولان، والمقصود بالوِطاء في الحديث: الفراش اللَّيِّن، وأُهريق دمه: صبه وأساله. ينظر: لسان العرب: وطأ، وهرق.

دمه، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي حتى أُهريق دمه"[1].

هذا الحديث من الأحاديث الداعية إلى الخوف من الله -تعالى-؛ والخوف من أعمال القلوب العظيمة التي ينبغي على كل المسلم أن يمتلئ قلبه بها؛ فيخاف من الله في أي مكان وأي زمان، فإذا تمكن ذلك من قلبه لم يفعل معصية ولم يقصر في طاعة، لذا يفصح النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث أن ربنا -عز وجل- عجب لنوعين من الرجال، أو لصفة في كل واحد منهما؛ وتعجبه سبحانه يدل على رضاه عن العمل مع إعطاء الثواب عليه؛ فالنوع الأول: (رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ...) أي: خرج من فراشه ومكانه الذي ينام فيه وترك لحافه...إلخ إلى صلاته (قيام الليل) فيقول الله -عز وجل- لملائكته مفاخرًا ومُباهيًا بعبده: (انظروا إلى عبدي ثار...رغبة فيما عندي) من الثواب والأجر العظيم، (وشفقة مما عندي) وخوفًا مما عند الله من العقاب والعذاب لغير الطائعين.

والنوع الثاني: (ورجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه) أي انكشفوا للعدو حتى بدت الهزيمة موشكة، وعلم هذا الرجل ما عليه في الانهزام من حرمة الفرار ومن عقاب الله والذل والعار، وما له في الرجوع إلى المعركة مع الكر والثبات في القتال وعظم الثواب في ذلك؛ انتصر أو قتل فرجع حتى أهريق دمه، والمراد أنه كرّ وقاتل بشجاعة غير مدبرٍ حتى قُتل؛ ليفوز بالشهادة؛ فيقول الله لملائكته

(١) السنن الكبرى، تأليف/ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م): باب فضل الشهادة في سبيل الله عز وجل: رقم/ ١٨٥٢٤، جزء/ ٩، صـ ٢٧٦.

مباهيًا به: انظروا إلى عبدي رجع رجاء فيما عندي من الأجر والثواب، وشفقة مما عندي أي: خوفًا من العذاب والعقاب، حتى أهريق دمه.

فهذا الحديث اشتمل على نوعين من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى ربه –عز وجل–، وبهما يكسب زيادة الأجر؛ النوع الأول: من هجر لذة نومه، وترك سريره ليتهجد، والنوع الآخر: المجاهد في سبيل الله المستبسل، ولم يفر عند انهزام القوم، والحق أن في هذا الحديث من الجماليات الأسلوبية والفنية ما يبهر ويدهش، وكلها تعلي شأن من يفعل هذه الأعمال عند الله –عز وجل–، وأول هذه النواحي الجمالية: أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– بدأ بالحدث مباشرة دون أي مقدمات تمهيدية؛ حيث قال: (عَجِبَ رَبُّنَا عز وجل من رجلين...) مستخدمًا صيغة المضيّ؛ ليعطي طابع التحقق والتأكيد لهذه الأحداث؛ فعجب الله من العمل يدل على عظم قدره، وهذا يدل على أن مثل هذا العمل محبوب لله مَرْضيٌّ، ولولا خروجه عن نظائره لم يعظم درجته ومنزلته.

وثاني هذه النواحي الجمالية: أسلوب التوشيع في قوله: (عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رَجُلَيْنِ...)؛ والتوشيع نوع من الإيضاح بعد الإبهام؛ فقوله: (رجلين) نكرة مثناة، والمعنى فيها مبهم غير واضح؛ فالسامع يترقب معرفة صفات هذين الرجلين اللذين عجب منهما رب العزة، فالإنسان المؤمن بطبعه يميل إلى معرفة ما يحبه الله لينال رضاه ويكون قريبًا منه حتى يفوز بالجنة ونعيمها، ثم يأتي التفصيل والإيضاح، فيكون المعنى ظهر بصورتين مختلفتين: الأولى: مجملة مبهمة، والثانية: مفصلة موضحة؛ بهدف تهيئة السامع وتشويقه لمعرفة تفصيل المعنى بعد إبهامه من جهة، ولتمكين المعنى وتقويته في نفسه من جهة أخرى؛ لأنها تشوقت إلى العلم به عندما ذكره مبهمًا، وعندما وضحه دخل في النفس مدخلًا لم يحصل بالإبهام، فهو طريق من طرق التوكيد؛ وذلك حيث يُرى المعنى في صورتين؛ يخرج فيهما المعني من الخفاء المستوحش إلى الظهور المأنوس، والتعبير بهذا اللون من الإطناب فيه إشارة إلى الترغيب في هذه الأعمال؛ لأن

الإجمال يشوق المتلقي إلى تفصيله، ويثيره إلى ترقب الإفصاح عن الأعمال التي أهلتهم للحصول على إعجاب ربنا -عز وجل-؛ لينهج نهجهم، ويسير على منوالهم، وفيه إشارة من طرف خفي إلى الترهيب من البعد عن هذه الأعمال، كل هذا دون التعبير بالأمر والنهي المباشر؛ فكان لهذا اللون أثر في تحقيق أقصى درجات مراعاة مقتضى الحال للمتلقي من عامة الناس.

وفي التفصيل عبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في النوعين عن المسند إليه بلفظ (رجل) وجاء نكرة؛ لما يفيده التنكير من التعظيم والعموم الذي يتيح وصف كل من يقوم بهذين العملين بصفة الرجولة، ولعلنا نتساءل عن سبب إيثار التعبير بكلمة (رجل) دون (شخص) أو (أحد) أو (مرأة) أو غيرها مما يقوم مقامها؛ والسبب في ذلك الإشارة إلى أن المسند من الأعمال العظيمة التي لا يستطيعها إلا الرجال ومن على شاكلتهم، ولا يفعلها من دونهم في العزيمة والإرادة والقدرة على غلبة النفس والهوى؛ فإذا رجعنا إلى كتب اللغة نجد أن المراد بها: الذكر البالغ من بني آدم، والرجولة والرجولية هي كمال الصفات المميزة للرجل[١]، ويروى: كانت عائشة -رضي الله عنها- رجلة الرأي[٢] كناية عن رأيها وشدته، ولعل التعبير عن الذي يفعل هذه الأعمال بلفظ (رجل) ليس منصبًا على تعريفه باسمه العلم بقدر ما هو منصب على بيان الأفعال والصفات التي جعلته ينال رضا المولى عز وجل، ولعل القصد -أيضًا- من التعبير بلفظ (رجل) توسيع المعنى؛ ليشمل كل من يفعل ذلك في مختلف العصور والأزمان، وفيه إشارة إلى أن هذه الأعمال تحتاج إلى عزيمة قوية، وقدرة على التحكم في النفس

(١) ينظر: لسان العرب: رجل.

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف/ أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق/ طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي (المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م):٢/ ٤٩٤.

لإجبارها على فعل ما فيه خيرها، وصرفها عما فيه عذابها أو ضررها؛ فدخول الجنة يحتاج إلى عزيمة الرجال، ومن كان على شاكلتهم في الإرادة، والانتصار على النفس.

وفي تعبيره عن صفات الرجل الأول قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَبِّهِ...) وفي الرواية الأخرى: (من بين حِبِّه وأهله...) وبدأ به؛ تقديرًا لفعله، وتعظيمًا لصنيعه ولأن هذا غاية الجهاد الأكبر؛ فمن قام بالعبادة في وقت راحة الناس في العادة مع عدم التكليف الإلهي، وتركه زوجه، يكون علامة على أنه من أهل السعادة؛ "قال الطيبيُّ: ولأن قيامه من فراشها مع ميل النفس إليها متوجهًا إلى التهجد أصعب وأشق"[(١)]، وفي تقديم الحديث عن قيام الليل ما يدل على أنه من أجلِّ القربات التي ترضي ربنا سبحانه وتعالى، والكلام في فضائله كثيرة جدًا؛ من أنه سبب لنيل الجنة، وأنه يقرب إلى الله، وهو سبب في تكفير الذنوب...إلخ، وفي هذا ما يحفز على قيام الليل، ويجعل من يقيمه يحرص على المداومة عليه، ويشعره بقيمة عمله، وفي هذا أيضًا ما يغري أهل النوم أن ينفضوا عن أنفسهم غطاء الكسل والغفل.

ومن النواحي الجمالية في هذا الحديث الدقة في اختيار ألفاظه، والتمكن الرفيع في التصرف بمفرداته مع مراعاة المقام وملاءمة السياق؛ فلم يقل صلى الله عليه وسلم (قام) وإنما قال: (ثار)؛ من ثار الشيء يثور: انتشر وارتفع[(٢)]، ومنه الحديث (فرأيت الماء يثور من بين أصابعه)[(٣)] أي ينبع بقوة وشدة، "ولأن

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف/ علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ) (دار الفكر، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م): ٧/ ٢٧٦٦.

(٢) ينظر: لسان العرب: ثور.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ٦٥٣.

القيام قد يقع بفتور، فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع حذرًا من فائت ما"[1]؛ فمعنى ثار عن وطائه ولحافه أي: قام بهمة ونشاط ورغبة، ومن ثمّ فالتعبير النبوي الدقيق فيه سداد وإصابة وغزارة في المعنى.

وفي الجمع بين (وطائه، ولحافه) وبين قوله: (أهله، وحبه) مراعاة نظير؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- جمع بين عدة ألفاظ متناسبة تناسب توافق لا تضاد؛ إذ الجمع فيها بين أشياء تقترن في خاطر الإنسان، فكلما ذكر الوطاء جرى الخاطر إلى اللحاف، وكلما ذكر الأهل جرى الخاطر إلى ذكر الحبيب، فليس من شك في أن جمع هذه المتناسبات يجعل السامع أكثر تمثلًا للمعنى المقصود من هذه الجمل، واستحضارًا لمضمونها، ومعايشة لفحواها، لا سيما أن إدراك الكل لا يتم إلا بإدراك أجزائه المفردة، وبذلك يحصل الهدف المرجو والفائدة المبتغاة من الكلام، ومما زاد المعنى وضوحًا وجمالًا وجود لون آخر من ألوان البديع؛ فبالتأمل يلحظ الطباق الخفي بين قوله: (وطائه، ولحافه)؛ فالوطاء: ما يوضع أسفل النائم من فراش، واللحاف: ما يوضع فوقه؛ هذا الطباق الخفي كان له دور في إظهار ترك لذة الراحة إلى لذة العبادة والطاعة التي نتيجتها جنة عرضها السماوات والأرض.

وما أجمل أسلوب الأمر في قوله: (انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي...) الذي يدل على إعجاب المولى -تبارك وتعالى- بعبده التقي ومباهاته الملائكة به، فيطلب الله من الملائكة أن ينظروا نظرة تعجب من صنيع هذا العبد الذي باع نفسه لله؛ فالأمر قد تتولد عنه دلالات تبعًا للقرائن الحالية والسياقية، وقد يكون له دلالات أخرى يكشف عنها التنغيم ويؤديها؛ فالتنغيم بدأ صاعدًا في جملة الأمر

(١) بدائع الفوائد، تأليف/ أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد بنِ أبي بكر بْنِ أَيُّوب ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق/ علي بن محمّد العمران، إشراف/ بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد (دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤٢٥هـ): ٣/ ١١٧٨.

(انظروا...) وهذا يتناسب مع إعجاب المولى –تبارك وتعالى– ورضاه عن عبده التقي ومباهاته الملائكة به.

والتعبير بالمصدر (رغبة) في قوله: (رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي) دون اسم الفاعل (راغبًا) أفاد المبالغة والتوكيد؛ إذ الوصف بالمصدر قوى المعنى، وكأن الرغبة فيما عند الله قد استولت على قلبه وتملكته فلا يخالطها نية ولا قصد غير ذلك، فالرغبة في الشيء هي: الحرص عليه والطمع فيه[1]،أي: رجاء الثواب وحبا في طلب رضا الله جل وعلا، بينما لو عُبر باسم الفاعل لربما كانت الرغبة فيما عند الله أحد صفات الرجل، ولربما –أيضًا– خالطتها الرغبة بمتاع الدنيا فيقوم إلى صلاته رغبة في المديح، ويقاتل ليقال عنه جريء إلى غير ذلك، ولا يخفى ما بين المعنيين من قوة الوصف والمبالغة.

وفي حديثه عن صفات الرجل الآخر قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَانْهَزَمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ...) يلحظ أن التعبير بلفظة: (غزا) أدق في المعنى دون غيرها كـ(جاهد)؛ لأن (غزا) تدل بمعناها وجرسها المشتمل على ألف المد في آخرها على أنه بلغ في الغزو مبلغًا لا حدود له، وأفاد القيد بالجار والمجرور: (في سبيل الله) الإشارة إلى أن غزوه كان خالصًا من الأغراض الدنيوية خاليًا من المنافع المادية، والمصالح الشخصية، وتلك الصفة لا تتحقق في جميع الناس، فلا توجد إلا عند الرجال، ومن كان على شاكلتهم في التعالي عن المنافع والمصالح الشخصية من الشباب والنساء.

والمتأمل في قوله: (وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَانْهَزَمُوا) يلحظ العدول عن المفرد في (رجل) إلى الجمع في (فانهزموا)؛ وذلك للدلالة على تميز

(١) ينظر: لسان العرب: رغب.

هذا الرجل من غيره ممن كانوا معه في الغزو، ولعل ليس المقصود هذا الرجل بذاته بل من يتأتى منه هذا الفعل، حتى لكأنه بامتيازه بهذا الفعل صار أهلًا لأن يعجب المولى -تبارك وتعالى- به، ولعل السر البلاغي -أيضًا- هو زيادة في الاهتمام، وإشعارًا بخطورة الأمر المتحدث عنه؛ فهو أمر ذو بال، حتى لا يتعود المجاهد على الانسحاب من المعركة، وفيه -أيضًا- إيحاء للجنود بأنهم يجب عليهم أن يتأسوا بهذا الرجل الذي رضي عنه رب العزة جل وعلا.

وفي قوله: (فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ) إيجاز قصر؛ أي علم ما عليه الأمر من ثواب المطيع أو المجاهد، وعقاب العاصي أو الفار من الحرب، ولا يخفى ما في هذا القول من المقابلة المبينة لمعرفة هذا الرجل ما سيناله في حالة فراره من المعركة، وما سيناله في حالة الرجوع إليها، ومن خلال المقابلة بين هذين المعنيين يتضح ما ينبغي عليه القيام به؛ فالمقابلة تختص بالجمع بين المعاني المتناقضة أو المتقابلة التي يستلزم تصور أحدها تصور الآخر، وعند ذكر الطرف الأول يكون الذهن مهيأ لمقابله ومستعدًا له، فإذا ورد ثبت وتأكد، ومن ثم يميز بينهما، يقول حازم القرطاجني: "فإن للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكًا وإيلاعًا بالانفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعًا من سنوح ذلك لها في شيء واحد"[1]؛ فالمقابلة تجعل الفرق بين السلوكين -الفرار، والرجوع- والمصير المترتب عليهما قائمًا أمام العين، مما يبعث على معرفة الرجل حقيقة السلوكين، والاقتناع باختيار أيهما أفضل، بالإضافة إلى أنها أضفت على الأسلوب نمطًا من التوازن الصوتي

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة (الدار العربية للكتاب، تونس، ط الثالثة، ٢٠٠٨م): ٤٠.

له حسنه وبهاؤه؛ فالجملتان متوازيتان، والتقابل بينهما يحدث صوتًا وإيقاعًا قويًا يأسر الأسماع، ويخلب الألباب، فتطرب له الأذن، وتهتز له النفس؛ إذ إن بعض ألفاظها المتقابلة تحقق جرسًا بديعًا، وذلك بتكرار الكلمة نفسها، فليست المقابلة في هذا السياق مجرد زينة لفظية أو حلية فارغة المحتوى، وإنما هي أداة فنية تسهم في إبراز المفارقة بين حالين أحسهما هذا الرجل، ولا يخفى ما لهذه الموازنة من أثر قوي في ترابط الأسلوب، وسبكه سبكًا قويًا، يزيد من ترابط معاني الحديث، واتصالها اتصالًا قويًا معبرًا.

ولا يخفى ما في قوله: (فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع) وقوله: (رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي) من ترغيب وترهيب؛ الترغيب في نيل خير الجزاء من ربّ رحيم كريم واسع المغفرة، والترهيب من اتباع الهوى، والضلال عن الطريق المستقيم، فمن اتبع هواه وضلّ عن الصراط المستقيم توعده الجبار المنتقم من الويل والعذاب المهين.

وتأمل ما في التعبير بكلمة: (شفقة) دون غيرها كـ(خوفًا) من دقة في الأداء وروعة في الاختيار؛ إذ استطاعت أن تبرز المعنى المراد وتوضحه بشكل دقيق وشامل بمعناها وصياغتها؛ فالكثيرون يفسرون (الإشفاق) بالخوف، ولكن حينما نمعن النظر في أي القرآن الكريم نجد بونًا بينهما شاسعًا؛ فهذه الكلمة (الإشفاق) تكاد تقتصر استعمالاتها على عباد الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿...وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ومن هنا كان الإشفاق عناية مشوبة بخوف، وقد يغلب هذا أو ذاك؛ أعني العناية أو الخوف حسب ما يقتضيه السياق؛ فقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] يغلب فيه جانب العناية، وقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ

صَدَقَاتٍ...﴾ [المجادلة: ١٣] يغلب فيه جانب الخوف(١)، وما أجمل ما قاله ابن فارس من أن: "الشين والفاء والقاف أصل واحد يدل على رقة في الشيء، ثم يشتق منه، فمن ذلك قولهم: أشفقت من الأمر إذا رفقت وحاذرت"(٢)، ويقول الراغب في معنى الإشفاق بأنه: "عناية مختلطة بخوف؛ لأن المُشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه من أذى، فإذا عدي بـ(من) فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ(في) فمعنى العناية فيه أظهر"(٣)، كما عرفه ابن القيم بأنه: "رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطفها وأرقها"(٤)؛ وعلى ذلك فالإشفاق لفظ مرادف للخوف، ولكن ليس خوفًا من توقع مكروه، أو خوفًا يصحبه اضطراب وارتعاش، وإنما هو خوف يصحبه رقة ورحمة ورأفة، فالإشفاق عبارة عن خوف يكون معه رقة وضعف، كما أنه أخصّ من الخشية؛ إذ هو خشية مقرونة بالضعف والرأفة، والتضرع للمخشي؛ فالتعبير بالإشفاق فيه دلالة على رقة القلب، واستشعار الخشوع لله -تعالى- وتوقيره وتعظيمه الموصل إلى رضوانه وجنته، ويكون ذلك بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، تأليف/ أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بـ«الراغب الأصفهاني» (مكتبة نزار مصطفى الباز). (د. ط، ت): ٣٤٧، وما بعدها.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط/ عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م): شفق.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٢٠٠.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف/ ابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق/ محمد حامد الفقي، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م): ١/ ٥١٨.

والتعبير بـ(حَتَّى) الغائية التي تدل على الوصول إلى نهاية الغاية تدرجًا وتمهلًا في قوله: (حتى أُهريق دمه) يشير إلى طول مدة مقاومة الرجل واستبساله في قتال الأعداء، والتعبير بكلمة (أهريق) يدل على شدة ما تعرض له من طعنات حتى سال دمه بشدة، ومجيء هذا الفعل على صيغة الفعل الذي لم يسم فاعله؛ للجهل بالفاعل، أو للدلالة على أن القاتل أكثر من واحد، أو لأن الفاعل لا يعني المتلقي في شيء، فالمقصود تسليط الضوء على المجاهد في سبيل الله المستبسل، ولم يفر عند انهزام القوم حتى أريق دمه.

والمتأمل في هذا الحديث يلمح كثرة تكرار الألفاظ، وهذا يلفت انتباه السامع وإثارته؛ "لأنّ في التكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس، وتثبيتًا لها في الصدور، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد في النسيان"[(١)]؛ فتكرار (عندي) في قوله: (رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي) وتكرار هذا القول مرة أخرى في الحديث جاء ليبين عظمة الله –سبحانه وتعالى– ورحمته على عباده في الدنيا والآخرة؛ فالتكرار أفاد معنى التعظيم لما عند الله من شفقة ونعيم دائم في الجنة، كما أنه يفيد تمكين المعنى وتقريره وتثبيته في نفس المخاطب، وبالتأمل يلحظ من طرف خفي أن التكرار يحمل في ذات الوقت التنفير من أن يعمل أحد هذه الأعمال للرياء والسمعة، فلا بد أن يقصد بها وجه الله تعالى، ويلحظ أن تكرار كلمة (عندي) ساعد على إجراء موازنة رائعة بين جزئيات الجمل، ولا شك أن تكرار الكلمة على هذا النحو له أثرٌ بارز في توفير الجانب الموسيقي في النص، ومما عزز هذا التكرار أنه جاء في نهايات الجمل؛

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ – ٥٣٨هـ)، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الأخيرة، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م): ٧٦٩.

ليمثل قفلًا تُختم به الجمل، ويترك أثرًا قويًا في المتلقي، ليحرص على أن يكون عمله خالصًا لرب العزة جل وعلا، راجيًا فيما عنده من الثواب والأجر العظيم، خائفًا مما عنده من العقاب والعذاب الأليم؛ فالكلمات المكررة أومأت إلى أن تكرارها لم يكن عبثًا، وإنما كان بمنزلة المرتكزات التي على أساسها يعجب رب العزة بأعمال دون غيرها، ونلمح في هذه العبارة المكررة كثرة حروف المّد التي تدل على الاتساع؛ فاتساع مخرجها يشكل عاملًا أساسيًا في اتساع دلالتها المعنوية؛ فهي باتساعها توحي بكثرة كرم الله تعالى وعطائه غير المحدود لهؤلاء الذين يقومون الليل، والذين يقاتلون في سبيل الله حتى ينالوا الشهادة.

وفي تكرار كلمة (عبدي) كمال الخضوع لله، وكونها مضافة إلى ياء المتكلم العائدة إلى الله -عز وجل- مرتبة من التشريف، ورفع المكانة للعبد، وتوحي بمكانة العباد عند ربهم، ورحمته -سبحانه وتعالى- بهم؛ فعند تكرار كلمة (عبدي) نشعر بالعطف والتحنن من رب العباد سبحانه وتعالى، وفي تكرارها إشارة إلى أهمية العبادة ومكانتها عند الله تعالى، وبيان ضعف العباد وحاجتهم إلى رب العزة جل وعلا؛ فلا ملجأ من الله إلا إليه، ويظهر من الحديث نتيجة فعل العمل الصالح للعباد، وتحقيق ما يشتهون جزاء لهم على عبادتهم، وهو إكرام الله تعالى ورضاه عنهم.

ويلحظ التعبير بقوله: (عبدي) بعد التعبير بقوله: (رجل) وهذا يدخل في باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تحت مسمى الالتفات؛ حيث انتقل من الغيبة إلى الخطاب؛ والانتقال بالكلام عما يقتضيه سياق الحديث وما يترقبه السامع من صيغة إلى أخرى فيه إيقاظ للانتباه، وإثارة للاشتياق إلى هذا الكلام الجديد، كما أن فيه تطرية للكلام، وصياغة السمع عن الضجر والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، وفرق كبير وبون شاسع بين قوله: (رجل) وقوله: (عبدي)؛ فـ(عبدي) المضافة لله تدل على قرب هذا العبد منه -سبحانه وتعالى- أكثر من غيره،

ورضاه جل وعلا عنه، وفيه مزيد تشريف لهذا العبد؛ فالالتفات جاء لبيان أن الله –عز وجل– يباهي ملائكته بعبده الذي يعمل ما يرضي ربه، ولبيان عظم ما عند الله ورحمته وشفقته بعباده.

هذا، ومن الواضح البين في هذا الحديث أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– جمع بين نوعين من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل، وبفعلهما يزداد الأجر منه تبارك وتعالى؛ وهما: من هجر لذة نومه وترك سريره ليتهجد، والمجاهد في سبيل الله المستبسل، ولم يفر عند انهزام القوم، وذلك في حكم واحد؛ وهو إعجاب الله تعالى بهما، ورضاه عنهما، والغرض من هذا الجمع هو: بيان أنهما من الأمور التي تحتاج إلى مجاهدة النفس لتحقيقها، والجمع بينهما في حكم واحد فيه دلالة على عظيم الأجر والثواب لمن يعمل هذا أو ذاك، أو يجمع بينهما، وفيه دلالة من طرف خفي على أن الدنيا يجب ألا تُعطى أكبر من حجمها، وألا تشغل هم المسلم، ولا تسيطر على عقله وقلبه بأكثر مما تستحق، بل يجب على المسلم أن ينشغل بعبادة الله تعالى، وعمل ما يرضيه جل وعلا، فالتحلي ولو بصفة واحدة من الصفات التي عجب منها ربنا – عز وجل– قد يكون سببًا في نجاة العبد والعفو عنه يوم القيامة.

المبحث الثالث

إكرام الضيف. حديث: (...عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يضمّ أو يُضيف هذا؟"، فقال رجلٌ من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلّا قُوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبِحي سِراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيّأت طعامها، وأصبحت سِراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنّها تُصلح سِراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنّهما يأكلان، فباتا طاويين، فلمّا أصبح غدا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فقال: "ضحك الله اللّيلة، أو عجب من فعالكما" فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩](١).

وفي رواية أخرى: عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال إنّي مجهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والّذى بعثك بالحقّ ما عندي إلّا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك لا والذى بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال: "من يضيف هذا اللّيلة رحمه الله" فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحْلِهِ، فقال لامرأته: هل عندك شيء قالت: لا إلّا قُوت صبياني، قال: فعلّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفُنا فأطفئي السّراج وأريه أنّا نأكُل، فإذا أهْوى ليأكُل فقومي إلى السّراج حتّى تُطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضّيف، فلمّا أصبح غدا على

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله تعالى: ويؤثرون على أنفسهم: رقم/ ٣٧٩٨، جزء/ ٥، صـ ٣٤.

النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: "قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة"(١).

وفي رواية أخرى: أتى رجل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "ألا رجل يُضيِّفُهُ هذه الليلة، يرحمه الله؟" فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدّخريه شيئًا، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "لقد عجب الله عز وجل –أو ضحك– من فلان وفلانة"، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩](٢).

يتجلى في هذا الحديث الشريف حب أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– له حتى أنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؛ يظهر ذلك في قصة الرجل الذي جاء إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأخبره بأنه أهلكه الجوع وسوء العيش، فأرسل النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى نسائه لعله يجد عند واحدة منهن ما يسد رمق الرجل، فيحلفن جميعًا بأنهن لا يملكن من الطعام شيئا إلا الماء، فلما لم يجد الرسول –صلى الله عليه وسلم– عندهن طعاما أخذ

(١) صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ – ٢٦١هـ)، ترقيم وترتيب الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقي (ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م) كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف: رقم/ ٢٠٥٤، صـ٥٥٠.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة، ط الأولى، ١٤٢٢هـ): ٦/ ١٤٨.

يسأل أصحابه بقوله: (من يضيف هذا الليلة) فقال رجل من الأنصار[1]:أنا يا رسول الله، فلما ذهب إلى منزله سأل زوجه عن الطعام لضيف رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقالت: ما عندي شيء إلا قوت صبياني، ويتجلى الإيثار عند ذلك الأنصاري حين احتال وزوجه على الضيف؛ فهيئا له الطعام، وأوقدا السراج، ونوّما الصبيان، وقامت إلى مصباحها كأنها تصلحه فأطفأته ليشعر الضيف أنهما يشاركنه الطعام ويأكلان معه، وهذا من باب الإيثار والمروءة للضيف ليأنس بهم ويشبع، فلما أقبل الصباح سارع الأنصاري بالذهاب إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ليقص عليه ما حدث منه وزوجه اتجاه الضيف، فأخبره –صلى الله عليه وسلم– بأن الله قد عجب من فعلهما الليلة وإيثار الضيف على أنفسهم وأطفالهم، ولا يمنع "أن يكون معنى التعجب منهما للمؤمنين كأنه يقول: أخبر الله تعالى أنهما أتيا من الأمر العجيب البديع الذي لم يجار العادة، فيستعظم ذلك على جهة المدح لمن جاء به والرضا به والاستحسان"[2]، ثم جاء التكريم من الله –عز وجل– للأنصاري وزوجه؛ فأنزل في حق الأنصار قرآنًا يتلى إلى يوم الساعة؛ قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]؛ فالإيثار من الصفات الكريمة التي تحلى بها الأنصار، وهذا الحديث الشريف

(١) قيل أنه أبو طلحة، وقيل: ثابت بن قيس بن شماس، وقيل: عبد الله بن رواحة. ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، للعلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي (المتوفى: ١٠٥٧هـ) (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان): ٤ /٣٦٩.

(٢) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري سنة الولادة / سنة الوفاة ٣٨٤هـ، تحقيق/ محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م): ٢٠٣.

يظهر ما قام به هذا الأنصاري من حسن تصرف نحو ضيف رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؛ حيث أكرمه وضيّفه على الرغم من فقره وقلة زاده، وإكرام الضيف من الأعمال التي أكد النبي –صلى الله عليه وسلم– عليها، فأخبر أنه من شعب الإيمان؛ فعن أبي شريح الكعبي أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه"(١)(٢).

وتبدو النواحي الأسلوبية والبلاغية في هذا الحديث برواياته المختلفة في مواطن عدة، منها: أن هذا الحديث قد صيغ في قالب حواري؛ وما فيه من شد انتباه السامع للمعنى المقصود، كما فيه من التأدب ومراعاة الحال؛ فأسلوب الحوار يجعل الإقبال على متابعة النّص أشد، والذهن أكثر تفتحًا وتجاوبًا.

ومما يشي برغبة الأنصاري في إكرام ضيف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– التعبير بأسلوب الأمر الحقيقي في: (أكرمي، هيئي، أصبحي، نوِّمي)؛ فكل فعل من هذه الأفعال له فصاحته وبلاغته ودوره في التعبير لا يصلح غيره أن يشي بما يشي به هذا الفعل إذا وضع مكانه؛ ولعل أبلغ دليل على ذلك التعبير بقوله: (أكرمي) فهي في موضعها أبلغ في الدلالة على المعنى المقصود من غيرها كـ(أطعمي)؛ لأن الإكرام فيه إطعام وتكريم وحسن إعداد وتقدير، وشدة اهتمام بالضيف من غير شح أو تقتير، وقوله: (أصبحي) أي: أضيئي المصباح وأوقديه ليشعر الضيف بحسن استقباله وتقديره، والتشديد في قوله: (نوِّمي،

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه: رقم/ ٦١٣٥، جزء/ ٨، صـ ٣٢.

(٢) يثوي: يقيم، ويحرجه: يضيق عليه حسا ومعنى. ينظر: لسان العرب: ثوا، وحرج.

وهيِّئي) يفيد المبالغة؛ فالتشديد في (نوِّمي) يفيد التأكد من نوم الصبيان؛ حتى لا يكون ثمة إزعاج للضيف أو ضيق له وضجر، والتشديد في قوله: (هيِّئي) يفيد الاهتمام بإعداد الطعام للضيف إعدادًا جيدًا وتهيئته له؛ لأنه ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يخفى ما في قول الأنصاري: (هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا) من تناغم يورث جرسًا موسيقيًا في الأذن، فنرى جمال السجع في ثنايا الجمل ونهايتها؛ حيث تكرار (الياء) في ثنايا الجمل، بالإضافة إلى (الكاف) في ختام بعض الجمل، وكذلك تكرار (التاء) في ثنايا الجمل، و(الهاء الممدودة) في ختام بعضها الآخر، وقد جاء السجع عفو الخاطر بعيدًا عن التكلف والتصنع؛ فالألفاظ فيه تبع للمعنى، وليس المعنى تبعًا للألفاظ؛ فقول الأنصاري متوازن العبارة، متسلسل الفكرة، متتابع المعاني، حتى لكأن الكلام بسهولة سبكه وعذوبة ألفاظه وسلامة تأليفه ماء يتحدر؛ فقد ختمت كل جملة بكلمة تماثل في وزنها ما ختمت به الجملة السابقة عليها، كما أن قصر السجع في هذه الجمل زادها حسنًا، وكساها بهجة، بالإضافة إلى أنه يوحي برغبة الأنصاري الصادقة في الإسراع بتنفيذ أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ حيث أمر زوجه بالاستعداد لاستقبال الضيف من تهيئة الطعام، وإيقاد السراج، ونوم الصبيان...إلخ، ولا يخفى ما في هذه الجمل: (فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا...) من حسن ترتيب وإعداد لاستقبال ضيف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يخفى ما في دلالة هذا السجع على فصاحة الأنصاري وتمكنه من اللغة؛ فالسجع القصير يدل على قوة قائله، وتمكنه في الصناعة؛ لصعوبة إدراكه، وعزة اتفاقه، وبالنظر إلى هذه الجمل يلحظ أن أسلوب الوصل بينها يدل على استمرار الأعمال التي تهيأ المكان للضيف، وفي الوصل دلالة على أن كل صفة كاملة ومغايرة للأخرى؛ وهذا ما تمم المعنى وأكده.

وقد ورد في الحديث حذف أكثر من جملة؛ لدلالة السياق عليها؛ وذلك في قوله: (ما عندي إلا ماء) أي ما عندي من جنس ما يطعم شيء من الأشياء إلا الماء، بقرينة السياق، كما حذف الخبر اختصارًا في قوله: (أنا يا رسول الله)؛ وذلك لدلالة وجوده في السؤال (من يضمّ أو يُضيف هذا؟)، فالتقدير: أنا أضيفه، ويحتمل كونه فاعلًا حذف فعله اكتفاء بدلالة وجوده في السؤال؛ أي: أضيفه أنا، فحذف الفعل اكتفاء بدلالة وجوده في السؤال، كما حذفت الجملة بعد (لا) لدلالة السياق عليها، وذلك في قوله: (قالت: لا إلا قوت صبياني) فبعد (لا) جملة مقدرة لدلالة ما قبلها عليها؛ أي: لا شيء عندي(١).

ويلحظ التعبير بأسلوب القصر في قول نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– لـه: (ما عندنا إلا الماء) وقول زوج الأنصاري لزوجها: (ما عندنا إلا قوت صبياني) وكان الطريق الأم (النفي والاستثناء) هو طريقهن في هذا القصر، وأسلوب القصر –كما هو معلوم– يتميز بتركيز العبارة وضغطها وتقصيرها، كما أنه طريق لتقرير المعنى في ذهن المتلقي، وتأكيده بعد تحديده تحديدًا واضحًا، وتعيينه، وحصره، وقد آثرن في هذا المقام التعبير بأشهر أدوات النفي والاستثناء (ما، وإلا)؛ لتحقيق مزيد من التأكيد والتقرير، وبالتأمل يتضح أن أسلوب القصر في العبارتين إنما هو كناية عما كُنَّ يعشن فيه النساء من كفاف وعفاف، وما يحيين فيه من شظف عيش وقلة زاد؛ فعبارة نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– توحي بخلو بيوتهن من القوت، وعبارة زوج الأنصاري توحي بأن ثمة قوتًا في البيت ولكنه قوت الصبيان الصغار، مما يدل على إيثارهما صبيانهما على نفسَيْهِما.

(١) ينظر: دليل الفالحين: ٢/ ٥٧٠، وما بعدها.

وفي رواية قالت زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء) فقد استعلمن القسم بالاسم الموصول (الذي) تفسره الجملة التي بعده (بعثك بالحق) أي: الله -جل جلاله-؛ والتقدير: أقسم بالذي بعثك بالحق؛ فحذف الفعل وعوّض عنه بحرف القسم (الواو) والمقسم به (الذي) والمقسم عليه جملة القصر: (ما عندي إلا ماء)، وفي رواية استخدمت زوجة الأنصاري أسلوب القسم الصريح: (والله ما عندي إلا قوت صبياني)؛ للتأكيد، والقسم بلفظ الجلالة (والله) وهو أعلى صور القسم، وأعظم تراكيبه؛ لما فيه من تصريح بالاسم الجليل؛ لذا تعتري الإنسان رهبة عند ذكره، كما أن فيه استحضار لمعنى الألوهية أعلى مقامات التوحيد؛ لكونه يتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، ففي القسم إظهار التأكيد والجد في كلام المتكلم، كما أنه لا شيء من أساليب الكلام أصلح للتصوير من القسم، فإن الذي أقسم به كأنه دعاه كالشاهد فأوقفه بين يدي المخاطب متمثلًا.

ولما كان أسلوب الاستفهام من أوفر أساليب الكلام إظهارًا للمعاني وأوسعها تصرفًا جاء الاستفهام في قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: (مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟) وقوله في الرواية الأخرى: (ألا رجل يُضيِّفُهُ هذه الليلة، يرحمه الله؟) ليظهر رغبته صلى الله عليه وسلم في إكرام الضيف؛ لما فيه من دلالة على عظيم الأجر والثواب لمن يفعل هذا الأمر؛ فمن يفعل ذلك يستحق رضا الرحمن جل وعلا، ولا يخفى ما في التعبير بالفعلين المضارعين: (يضمّ، ويضيّف) من إشارة إلى الحركة والتدفق في الحدث، والتشديد فيهما يفيد المبالغة في الشيء، والاهتمام به، ومن لطائف التعبير في هذا الحديث ما يحمله الفعل: (يضم) من عجيب المعنى أكثر من غيره كـ(يطعم) مثلًا؛ لأنه يوحي بالرفق واللين مع الضيف، ومن ثمّ إظهار الحب والاهتمام الشديدين به حتى يشعر بأنه أضحى جزءًا ممن يضيِّفه.

ومن الدقة في اختيار المفردات مجيء الطلب عن طريق العرض والتحضيض في قوله: (ألا رجل يُضيِّفُهُ هذه الليلة، يرحمه الله؟) فهمزة الاستفهام داخلة على لا النافية للجنس؛ وكأن النبي –صلى الله عليه وسلم– أراد أن يقول: (أينتفي وجود رجل يضيف هذا)، وعمد النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه الرواية إلى إظهار ثواب من يضيف هذا الضيف؛ فأردف الطلب بصيغة الدعاء (يرحمه الله) زيادة في الترغيب والتحفيز، ودعاء بالرحمة والمغفرة، ويلمح من وراء الدعاء في هذا السياق إلى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يعلم ما عند أصحابه من شظف عيش وقلة زاد، ومع ذلك يوحي التعبير بالفعل الماضي: (فانطلق) دون غيره كـ(فامشي) بسعادة الأنصاري ورغبته الصادقة في تنفيذ أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والإسراع في تحقيقه.

ويأتي التشبيه في قول الراوي: (ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ) ليظهر إيثار الأنصاري وزوجه ضيف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على نفسيهما وأولادهما؛ فبعد أن نيمت الصبيان قامت إلى السراج كأنها تصلحه فأطفأته لإيهام الضيف أنهما يأكلان معه (فجعلا يريانه أنهما يأكلان)، وهذا من باب الإيثار والمروءة للضيف ليأنس بهم ويشبع، وللمبالغة في إحكامها هذه الحيلة عبر الراوي بأداة التشبيه (كأن) التي تفيد التأكيد والمبالغة في التشبيه، وتدل على قوة وجه الشبه بين الطرفين؛ فتوحي بأن من يرى ما تفعله بالسراج لا يظن إلا أنها تصلحه، فلا شك في أن (كأن) كانت هي الأجدر بالتعبير عن هذا المعنى من غيرها من أدوات التشبيه، والتعبير بصيغة المضارع (تصلح) تكشف عن الحركة التي تنبئ عن محاولتها إصلاح السراج، وإيثار التعبير بحرف العطف (ثم) في قوله: (ثم قامت) الذي يفيد الترتيب والتراخي فيه إشارة إلى أن زوج الأنصاري أخذت وقتًا طويلًا في نوم الصبيان حتى لا يكون ثمة قلق أو إزعاج للضيف، كما أن (ثم) تمتاز بقدرتها على نقل الأحاسيس من خلال تحريك زمن الأحداث بما يستطيع تصوير أحوال النفوس، وتجسيد ما يعمرها من فيض الشعور والعقول وتمثيله في بُعد معين.

ويدل قوله: (فباتا طاويين) على نومهما جائعين؛ فقوله: (طاويين) حال تثنية طاو، وهو الجائع خالي البطن الذي يطوي ليله بالجوع، وهذا الجوع كان موجودًا بالنهار، وظلّ حتى أدركه الليل؛ فـ"بات يفعل كذا وكذا أي: ظل يفعله ليلًا"[1]، ويظهر حرص الأنصاري على الذهاب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليقص عليه ما فعله نحو ضيفه في قول الراوي: (فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) فالتعبير بـ(لمّا) الحينية الدالة على الوقت والحين، والمتضمنة معنى الشرط، والتي تدل على أنه حين كان كذا يكون كذا، وترتب الثاني على الأول في اللحظة نفسها، ومجيء فعل الشرط وجوابه ماضيًا يدل على أن هذه الأحداث مضت وانتهت؛ لذا فهي متحققة الوقوع والثبوت، والتعبير بها يدل على أن الوقت مر طويلًا على الأنصاري؛ فالمد والتضعيف فيها يوحيان بذلك، وما ذلك إلا لحرصه على الذهاب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليطمئن لما قام به نحو ضيفه، وورود جواب الشرط بعد فعله مباشرة يدل على ذلك الحرص، كما أن الغدوَّ فيه معنى الإقبال والتبكير؛ فبمجرد ظهور الصباح ذهب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال له عليه الصلاة والسلام: (ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما)، فقوله: (أو عجب) شك من الراوي، لكن في رواية البخاري: (لقد عجب الله من صنيعكما...) وهذا صريح في ثبوت الحديث بلفظ العجب، وفي هذه الرواية اجتمع عدة مؤكدات تضافرت لبث الفرح والسرور في قلب الرجل وزوجه؛ فلام الابتداء الدالة على التوكيد، وتبعها الحرف (قد) وهو حرف تحقيق يفيد التوكيد، ثم تلاه الفعل الماضي (عجب) الذي يفيد تحقق وقوع الرضا من الله في حقهما؛ فالمقصود من الضحك أو العجب في حق الله تعالى رضاه عنهما، وقيل: تعظيمه لهذا الفعل، وقد ذكر الخطابي عند حديثه عن التعجب في هذا الحديث أن: "إطلاق العجب لا يجوز على الله تعالى وإنما معناه الرضا، وحقيقته: أن ذلك الصنيع منهما حل عند الله

(١) لسان العرب: بيت.

القبول له ومضاعفة الثواب عليه محل العجب عندكم في الشيء التافه إذا رفع فوق قدره وأعطى به الأضعف من قيمته مال، وتأويل الضحك بمعنى الرضا أقرب من تأويل البخاري بالرحمة؛ لأن الضحك من الكرام يدل على الرضا، وهو مفهومها إنجاح الطلبة، قال: ويحتمل أن يكون للملائكة؛ لأن الإيثار على النفس نادر في العادات مستغرب في الطباع فعجب منه الملائكة"(١).

وما أجمل أسلوب الشرط في هذا الحديث برواياته المختلفة: (وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً) وفي رواية: (فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ) وفي رواية: (فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم)؛ فالتعبير بـ(إذا) يدل على تحقق فعل الشرط وارتباط الجواب به، وبلاغة أسلوب الشرط تأتي من الترابط والتلازم في ربط الجمل بعضها ببعض، ولعل السر وراء التعبير بـ(إذا) في هذا الحديث برواياته المختلفة دلالتها على الأمر المقطوع به؛ فتدل على علم الأنصاري أن أولاده سيطلبون العشاء، وأن هذا من الأمور المتكررة، وقد أصابت (إِذَا) هنا موقعها في الدلالة على إيثار الأنصاري الضيف حتى على أولاده، وحذفت جملة جواب الشرط في رواية: (وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً)؛ للإيجاز، ولدلالة ما قبل (إذا) عليه، وهذا الحذف مناسب في هذا المقام؛ ففيه تناغم مع موقف السرعة الذي لازم الأنصاري وزوجه لتهيئة المكان للضيف، وتتجلى الدقة في التعبير بالفاء، وما تفيده من السرعة في: (فَأَطْفِئِي، وفَقُومِي، وفنوميهم) ففي ذلك دلالة على سرعة تهيئة المكان، وشدة اهتمام بالضيف حتى لا يكون ثمة إزعاج أو ضيق له.

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني (المتوفى: ٧٨٦هـ) (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، طبعة أولى: ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م، طبعة ثانية: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م): سورة الحشر، باب قوله: {ويؤثرون على أنفسهم}: ١٨/ ١٣٥.

وفي رواية عندما سأل الأنصاري زوجه: (هل عندك شيء؟ قالت له: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء) أي: اشغليهم بشيء؛ فعلله بحديث وغيره: شغله به[1]، وهو مضعف، وقد أعطى هذا التضعيف معنى التكثير والتكرار والحركة المستمرة، كما أن وجود صوت (اللام) زاد أيضًا في معنى الحركة والتكرار، وقد تكرر صوت (اللام) بشكل مكثف؛ مما وفر جرسًا موسيقيًا أغنى الإيقاع الداخلي وأدى دورًا بارزًا بصفاته النطقية في تصوير المعنى المراد الذي تتجلى من خلاله الصورة، إضافة إلى ذلك فإن التعلل من الأمور الحسية التي يدركها المرء عن طريق الحواس، كما أن صاحبها يحتاج في حدوث الفعل إلى الحركة؛ فالمقصود: استمري في انشغالهم بأي شيء حتى لا يطلبوا الطعام الذي يقدم للضيف؛ فالتنكير في (بشيء) يوحي بذلك.

وبعد: فهذا الحيث يشتمل على فوائد كثيرة من يعمل بها استحق الرضا والقبول من الله -سبحانه وتعالى- ورسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم-؛ هذه الفوائد ذكرها الإمام النووي في قوله: "هذا الحديث مشتمل على فوائد كثيرة منها: ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته من الزهد في الدنيا والصبر على الجوع وضيق حال الدنيا، ومنها: أنه ينبغي لكبير القوم أن يبدأ في مواساة الضيف ومن يطرقهم بنفسه فيواسيه من ماله أولًا بما يتيسر إن أمكنه ثم يطلب له على سبيل التعاون على البر والتقوى من أصحابه، ومنها: المواساة في حال الشدائد، ومنها: فضيلة إكرام الضيف وإيثاره، ومنها: منقبة لهذا الأنصاري وامرأته -رضي الله عنهما-، ومنها: الاحتيال في إكرام الضيف إذا كان يمتنع منه رفقًا بأهل المنزل لقوله: أطفئي السراج وأريه أنا نأكل فإنه لو رأى قلة الطعام وأنهما لا يأكلان معه لامتنع من الأكل..."[2].

(١) ينظر: لسان العرب: علل.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف/ أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الثانية، ١٣٩٢هـ): ١٤/ ١٢.

المبحث الرابع

سعة رحمة الله ومغفرته لعباده. حديث: (...إن ربَّك يعجَبُ من عبده إذا قال: اغفرْ لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذّنوب غيرك.

عن عليّ بن ربيعة، قال: شهدت عليًّا أُتي بدابّةٍ ليركبها، فلمّا وضع رجله في الرّكاب، قال: "بسم الله" ثلاثًا، فلمّا استوى على ظهرها، قال: "الحمد لله"، ثمّ قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤] ثم قال: "الحمد لله" ثلاثًا، "الله أكبر" ثلاثًا، "سُبحانك إنِّي قد ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنّه لا يغفر الذّنوب إلا أنت"، ثُمّ ضحك، فقلت: من أيّ شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت، ثُمّ ضحك، فقلت: من أيّ شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: "إنّ ربّك ليعجب من عبده إذا قال: ربّ اغفر لي ذُنوبي إنّه لا يغفر الذّنوب غيرك"[(١)].

وفي رواية أخرى: عن عليٍّ بن ربيعةَ، قال: شهدتُ عليًا رضي الله عنه وأُتيَ بدابّة ليركبَها، فلما وضع رجلَه في الرِّكاب، قال: باسمِ اللهِ، فلما استوى على ظهرِها قال: الحمدُ لله، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤] ثم قال: الحمدُ لله، ثلاثَ مراتٍ، ثم قال: اللهُ أكبرُ، ثلاثَ مراتٍ، ثم قال: سُبحانَك إني ظلمتُ نفسِي فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ

(١) سنن الترمذي، تأليف/ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق:/ أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م): باب ما يقول إذا ركب دابة: رقم/ ٣٤٤٦، جز/ ٥، صـ ٥٠١.

الذنوبَ إلا أنت، ثم ضحكَ، فقيل: يا أمير المؤمنين من أيِّ شيء ضحكتَ؟ قال: رأيتُ النبيَّ – ﷺ – فعل كما فعلتُ، ثم ضحكَ، فقلت: يا رسول الله من أي شيء ضحكتَ؟ قال: "إن ربَّك يعجَبُ من عبده إذا قال: اغفرْ لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفرُ الذنوبَ غَيرِي"(١).

يوضح هذا الحديث ما يستحب عند السفر من التسمية، والحمد، والتكبير...إلخ، وأول ما يلحظ تعبير الراوي بالماضي (شهدت) ما يدل على أن هذه الأحداث مضت وانتهت، ومن ثمّ فهي متحققة الوقوع، والتعبير بالفعل (أُتي) لما لم يسم فاعله يحتمل أن يكون الراوي يجهل الآتي بالدابة، ويحتمل أن يكون عالمًا به، ولكنه لم ينص عليه؛ لأنه ليس لذكره أهمية، ولعدم تعلق غرض المتكلم به، وإنما الغرض متعلق بالمأتى إليه، والتعبير بـ(لمَّا) الحينية في قوله: (فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا) الدالة على الوقت والحين، والمتضمنة معنى الشرط، والتي تدل على أنه حين كان كذا يكون كذا، وترتب الجزاء على الشرط في اللحظة نفسها فيه دلالة على التسمية بمجرد وضع رجله في الركاب، و(لمَّا) وما دخلت عليه يدلان على أن الراوي يتحدث عن أمر مضى وانتهى يسترجعه من الذاكرة، كما أن التعبير بـ(لمّا) يدل على ما يبذله المسافر في سفره خصوصًا في زمن الراوي من جهد؛ فالمد والتضعيف اللذان فيها يوحيان بقمة العناء والتعب في السفر، ولعل السبب في البدء باستحباب التسمية عند الشروع في ركوب وسيلة السفر دون الحمد؛ لأن البسملة أول ما يفتتح به الكلام، وأول ما يفتتح به كل أمر ذي بال؛ جاء في حديث أبي هريرة –

(١) سنن أبي داود، تصنيف الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (٢٠٢هـ – ٢٧٥هـ)، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، (دار الرسالة العالمية، ط الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م): كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا ركب: رقم/ ٢٦٠٢، جزء/ ٤، صـ ٢٤٣، وما بعدها.

رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (كل كلام أو أمر ذي بالٍ لا يُفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر، أو قال: أقطع)[١]، فالمقصود من البسملة: الاستعانة بالله؛ فلولا عونه ما استطاع العبد أن يفعل أي شيء في أمور حياته؛ لذا يستحب للمؤمن عند سفره أو عند شروعه في أي عمل أن يقول بداية: (بسم الله)، كما أن الافتتاح بالبسملة التي هي عنوان العبودية لله –تعالى– فيه معنى التسليم المطلق له سبحانه وتعالى والرضا بقضائه، وماذا يملك العبد غير التسليم والرضا؟!.

ويوضح الحديث استحباب هذا الذكر الذي في الحديث من الحمد والتكبير...إلخ، وأن دعاء السفر محله عند الاستقرار في وسيلة السفر، وأن الصحابة –رضوان الله عليهم– كانوا يتأسون بالنبي –صلى الله عليه وسلم– في جميع أحواله وأفعاله، ونلمس في هذا الدعاء روعة البلاغة العربية في جمع أماني النفوس؛ وهي غفران الذنوب؛ فسبحانه وتعالى يرضا عن عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك، وفي هذا دلالة على سعة رحمة الله بعباده، وواسع مغفرته، وعندما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ثم بدأ بعد الحمد بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣–١٤] و"كان الذي يتبادر أن يقول الإنسان: الحمد لله الذي سخر لنا هذا، ولكنه أمر أن يقول: (سبحان الذي سخر لنا هذا) لماذا؟؛ لأن (سبحان) تدل على التنزيه؛ يعني تنزيه الله –عز وجل– عن الحاجة وعن النقص، فكأن الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليه يستعين به على حاجاته، فيسبح الله –عز وجل– الذي هو مستغنٍ عن كل خلقه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، (١٤٦ – ٢٤١هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون: رقم/ ٨٧١٢، جزء/ ١٤، صـ ٣٢٩.

جلَّ وعلا، فكان التسبيح في هذا المقام أنسب"[١]، والتعبير باسم الموصول في قوله تعالى: (سبحان الذي) أفاد التذكير بنعم الله على عباده، والتأكيد على تنزيه المنعم -سبحانه وتعالى-، وأنه ما استحق هذا التنزيه إلا بسبب أنه واهب هذه النعم، ويشير قوله تعالى: (سخر لنا هذا) إلى عجز المؤمن أمام قدرة الله جل وعلا؛ فالمعنى: لولا تسخير الله لهذه الدواب ما استطعنا ولا قدرنا على تذليلها ولا الاستفادة منها، ثم جاء قوله: (وما كنا له مقرنين) زيادة في تأكيد عجز الإنسان أمام قوة الله القاهرة له ولجميع الخلائق، فسبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبالتأمل في قوله تعالى: (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) يلحظ كثرة المؤكدات: (إنّ، واسمية الجملة، وتقديم الجار والمجرور، ودخول اللام في الخبر)، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن السفر مظنة للتقصير في العبادة، والانشغال عن طاعة الله، فجاءت هذه المؤكدات لتلفت انتباه المسافر إلى الاحتراز عن الوقوع في مثل ذلك، ولحثه على الاجتهاد في الطاعة قدر استطاعته، ففيه إشارة إلى ضرورة ذكر الآخرة، والعمل لها؛ فالمسافر لا يعلم هل يرجع إلى أهله أم إلى قبره، أم لا يرجع أصلًا؟ فرحلة السفر تذكره بالرجوع إلى خالقه؛ فالآية فيها تأكيد على أن العبد لا بد أن يكون على ذكر دائم لله -تعالى- في جميع أحواله؛ في حلّه وترحاله، في سفره أو إقامته، في صحته أو مرضه، فمجيء الآية في هذا المقام "لتنبيه القائل للموت الذي قد ينشأ عن الركوب من تعثر الدابة وسقوطه عنها، فيحمله ذلك على الاستكانة لله سبحانه والتوبة عن سائر المخالفات"[٢].

(١) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، لفضيلة الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين (مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ): ٤/ ٦٠١، وما بعدها.

(٢) دليل الفالحين: ٦/ ١٤١.

ثم بعد ذلك حمد الله ثلاثًا وكبر ثلاثًا، وفي ذلك دلالة على أن تسخير الله هذه الدواب للإنسان تستحق ذكره وتحميده وتكبيره؛ فلولا هذا التسخير والتذليل من الله لهذه الدواب لما استطاع الإنسان كائنًا من كان أن ينتفع بها، ومن فعل ذلك التسخير والتذييل فهو كبير يستحق التعظيم، وجعل الحمد والتكبير بعد الاستواء على ظهر الدابة؛ لأن هذا الاستواء من الأشياء التي تذكّر بعظمة الله تعالى وكبريائه، ولعل السر في جعل الحمد والتكبير ثلاثًا المبالغة في تنزيه الله – سبحانه وتعالى– وتقديسه مما ذكر من الركوب والاستقرار المكاني، فيحمد الله على هذه النعمة العظيمة من تذليل هذا الوحش النافر وإطاعته لنا محفوظين عن شره، فلذا كرر الحمد تعظيمًا لتلك النعمة؛ إذ لا يقدر عليها غيره سبحانه وتعالى، "وقيل: الحمد الأول: لحصول النعمة، والثاني: لدفع النقمة، والثالث: لعموم المنحة....ثم لما أدى مقام شكر النعمة بالحمد أتى بما فيه الثناء عليه تعالى بالجلال، وكرره لمزيد الإجلال، وقيل: أتى به تعجبًا للتسخير أو دفعًا لنخوة النفس من استيلائها على المركب، والتكرار قيل: تعظيمًا للتسخير، وقيل: الأول إيماء إلى الكبرياء والعظمة في ذاته، والثاني: للتكبر والتعظيم في صفاته، والثالث: للإشعار بأنه منزه عن الاستواء المكاني"(١).

ثم تأمل قوله صلى الله عليه وسلم بعد هذا الثناء على الله من الحمد والتكبير: (سُبْحَانَكَ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ) فالتسبيح يعني تنزيه الحق –جل وعلا– عن الحاجة، وعن النقص، وتسبيحه – عز وجل– الذي هو مستغنٍ عن كل خلقه فيه دلالة على حاجة الإنسان إليه

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النّواويّة، تأليف/ العالم العلامة مفسر كلام الله تعالى وخادم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي (المتوفى: ١٠٥٧هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته/ عبد المنعم خليل إبراهيم (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان): ٥/ ١٢٧.

يستعين به على قضاء حاجاته، ثم بعد ذلك جاء الخبر المؤكد (إني قد ظلمت نفسي) الذي يفيد شدة الاعتراف بالضعف والتقصير وظلم النفس، وهذا الأسلوب المؤكد يكثر في مواطن إظهار الضعف والمسكنة أمام عظمة الخالق، من ذلك قول موسى -عليه السلام- لما وكز الرجل وقضى عليه: ﴿...إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي...﴾ [القصص: ١٦] وقول آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة: ﴿...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ [الأعراف: ٢٣] وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- للرجل الذي قال له علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا...)[(١)].

ومناسبة ذكر ظلم النفس في السفر أنه مظنة للتقصير في الطاعة، والوقوع في الخطأ والزلل؛ لذا كانت فيه عناية بالتوصية بحفظ الدين والأمانة وخواتيم العمل، كما أن السفر مظنة إجابة الدعاء، فمن وفق لعمل الطاعات واجتنب ارتكاب المعاصي في سفره كان جديرًا بإجابة دعائه؛ فقد ورد في الحديث الصحيح: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده"[(٢)]، فالمسلم الفطن من يستثمر فرصة السفر ليطلب من ربه غفران ذنوبه التي ظلم بها نفسه، يقول المناوي: "فائدة الإقرار بالذنب أن الاعتراف يمحق الاقتراف"[(٣)]، فالمسافر حينئذ يجمع بين مشقتين:

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام: رقم/ ٨٣٤، جزء/ ١، صـ ١٦٦.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، (١٤٦ - ٢٤١هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون: رقم/ ٧٥١٠، جزء/ ١٢، صـ ٤٧٩، وما بعدها.

(٣) فيض القدير (شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير) للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه/ أحمد عبد السلام، (دار الكتب العلمية، بيروت، =

مشقة الطاعة، ومشقة السفر، فتكون مكافأته إجابة دعوته، ويستمر له ذلك حتى يرجع.

وفي قوله: (إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي...) إيجاز بالحذف؛ حيث حذف مفعول (اغفر) والتقدير: فاغفر لي ذنوبي، بدليل ذكره بعد ذلك: (إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، ولعل السر في حذف المفعول في (فاغفر لي) وذكره في (إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) أن هناك ارتباطًا بين ذكر الغفران وذكر الذنوب؛ فإذا ذكر طلب الغفران علم أن المطلوب الغفران من الذنوب، ولهذا يحذف كثيرًا، ولذا حسن الحذف هنا، كما أن الطلب يحسن فيه القصر والإيجاز، وقوله: (فاغفر لي) أسلوب أمر خرج عن معناه الحقيقي للتضرع والدعاء والابتهال إلى الله تعالى؛ لأنه من الأدنى منزلة إلى الأعلى، وليس أمرًا من عالٍ في الرتبة إلى دانٍ؛ فالأمر صدر من المخلوق، وخوطب به القادر –سبحانه وتعالى– فهو دعاء وإن خرج مخرج الأمر، مع القرينة الحالية في الجملة والقرينة اللفظية؛ فالحال في الجملة حال ابتهال ورجاء من الله تعالى، واللفظ يشي بلا منازع إلى الدعاء؛ فالموقف موقف ضعف واستكانة، حيث يعترف العبد بكثرة ذنوبه ويدعو الله –سبحانه وتعالى– أن يغفر له ذنوبه، ويتجاوز عن خطاياه بنبرة حزينة متألمة.

وذكر المفعول (الذنوب) في جملة التعليل (فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) تشعر بعظمة الخالق –سبحانه وتعالى– وضعف المخلوق واحتياجه إليه –جل وعلا–، وتناسب مع ذلك التوكيد بـ(إن) وضمير الشأن، وأسلوب القصر؛ وسر التوكيد أنها جملة وقعت في موقع التعليل، فكأنه قيل: (لأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) فالتوكيد يحمل في طياته إلحاح على استجابة الطلب؛ فمن يغفر الذنوب

=

لبنان، ط الاولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م): ٤/ ١٥٧.

غيره سبحانه وتعالى!، ومن الملاحظ أن أسلوب القصر طريقه النفي والاستثناء، ومعلوم أن هذا الطريق من أكثر الطرق دلالة على توكيد المعنى وتقريره (لا يغفر الذنوب إلا أنت)، كما أنه يحقق مزية الإثارة والتشويق إلى ما يأتي بعد حرف الاستثناء؛ فإذا ورد ثبت في نفس المخاطب، وتمكن منها فضل تمكن؛ فقد قصر غفران الذنوب على الله -سبحانه وتعالى- قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقًا تحقيقيًا، وطريقه هو النفي والاستثناء؛ للتأكيد على أن غفران الذنوب مقصور على الله دون غيره، وأن هذا متجدد حالًا واستقبالًا؛ لأن حرف النفي (لا) يستعمل للنفي في الحال والاستقبال، وإذا دخل على الفعل المضارع فإنها تخلصه للاستقبال، يقول ابن القيم: "تأمل حرف (لا) كيف تجدها: لامًا بعدها ألف، يمتدّ بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس؛ فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها"(١).

ويدل قوله: (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يا أمير المؤمنين؟) على ضرورة سؤال العالم إذا فعل ما لا يتضح معناه، أو ما خفي سببه ليقتدى به فيه؛ فالإنسان يفعل الفعل الحسن وإن لم يكن له داعية من نفسه تشبهًا بأهله من الصالحين، وضحك أمير المؤمنين يدل على رضاه لأنه فعل ما فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ركوب الدابة، فأمير المؤمنين -رضي الله عنه- إنما ضحك اقتداء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما شهده، ولعله لم يكن مجرد مقلد بل كان يدرك الحالة النفسية والإيمانية التي كان فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يخبر عن رضا المولى -جل وعلا- باستغفار عبده وإقراره بين يديه بظلمه لنفسه وطلبه المغفرة، وضحكه صلى الله عليه وسلم يدل على سروره حينما يرضا رب العالمين عن عبده التائب إليه وطالب مغفرته، فأمير المؤمنين: علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ضحكه (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ) فكانت إجابته صلى الله عليه

(١) بدائع الفوائد لابن القيم: ١/ ١٦٦.

وسلم: (إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ...)؛ وضحك النبي –صلى الله عليه وسلم– رحمة وفرحًا لأمته؛ لأنه يعلم أن من يتوجه إلى المولى –جل وعلا– بالدعاء ليغفر ذنوبه سينال القبول؛ فسبحانه وتعالى يغفر الذنوب لكل من استغفر وتاب، ويفرح من عبده إذا استغفر وتاب إليه(١).

ويلحظ تعبير أمير المؤمنين بقوله: (صنع كما صنعت)، وفي الرواية الأخرى: (فعل كما فعلت) والتغاير في التعبير لا يوجد فيه تعارض؛ لأن (صنع، وفعل) كلمتان تغايرتا في اللفظ، والتغاير هنا أدى إلى اكتمال الصورة؛ لأن الصنع كما قال الراغب الأصفهاني: "إجادة الفعل؛ فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعًا"(٢)، والصنع كما قال ابن عاشور: يطلق على العمل المتقن، وانصرف للعمل الجيد النافع(٣)، والحق سبحانه وتعالى يتقبل بمشيئته من التزم بفعل الرسول – ﷺ – في السفر، ومن قصر أو نسي أو اضطرته الظروف إلى نسيان شيء منها فإنه سبحانه يتقبل منه ويجازيه على قدر فعله، وبهذا تتوافق الروايات لتدل على واسع رحمة الله –عز وجل– بعباده.

ويلحظ كثرة المؤكدات (إنّ، واسمية الجملة، ودخول اللام في الخبر) في قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ...) ولعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبته –صلى الله عليه وسلم– في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب وتقريره في النفس؛ فأسلوب التوكيد يؤدي إلى رسوخ المعنى المقصود في ذهن المتلقي، واستعمل البيان النبوي الفعل (يعجب) المتصل بلام التوكيد وهو مضارع يدل على الدوام والاستمرارية لمرضاته وفرحه سبحانه إذا رأى من عبده أنه قد آب إليه وندم على ما فرطت يداه في جنب الله تعالى.

---

(١) ينظر: شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، لفضيلة الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين: ٤/ ٦٠٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن: صنع.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: ١٩/ ٣٢٠.

ومن الملاحظ أن البيان النبوي في هذا الحديث قد آثر التعبير بلفظ (عبده) ولم يرد لفظ (أمة) المقابل له؛ ولعل السر في ذلك أن لفظ (عبد) يطلق على الذكر والأنثى، ولأن استخدام كلمة (عبد) في معظم هذه النصوص جاء ليكون نموذجًا لعباد الله من الذكور والإناث.

وبالتأمل في قوله: (إن ربَّك يعجَبُ من عبده إذا قال: اغفرْ لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفرُ الذنوبَ غَيرِك) يتضح استخدام الاسم الظاهر في مقام كان يقتضي ظاهر السياق استخدام الضمير فيه؛ أعني لفظ (الذنوب)؛ فمقتضى الظاهر أن يقول: (إنه لا يغفرها غيرك) لأن مرجع الضمير سابق عليه في قوله: (رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي) فما السر وراء ذلك؟ أقول: لعل السر في التعبير بالاسم الظاهر بدل الضمير في هذا المقام هو: زيادة تمكن هذا الاسم في نفس السامع اعتناءً واهتمامًا بما يجب على المسافر فعله أثناء سفره من الاستغفار من الذنوب وتكرار ذلك؛ فتكرار ذكر الذنوب فيه إشارة إلى وجوب تكرار دعاء الله تعالى بغفرانه الذنوب أثناء السفر.

ويلحظ في قوله: (يعلم أنه لا يغفرُ الذنوبَ غَيرِك) أن البيان النبوي قد آثر الاستثناء بـ(غير) بما تحمله من قوة صوتية؛ حيث الغين المستعلية، والراء المكررة المفخمة، وصوت المد الذي يتسم بالانفتاح والطول، وهذه الخصائص الصوتية العديدة تنسجم بشكل واضح مع بيان قدرة الله وعفوه وغفرانه، فالتعبير بالاسم (غير) دون غيره من الحروف التي تفيد النفي يتناسب مع هذا المعنى؛ فكما هو معلوم أن الاسم أقوى من الحرف؛ لأنه يدل على معنى في نفسه بخلاف الحرف الذي يدل على معنى في غيره، فهو دائمًا فقير للغير متصل بالاسم؛ ومن ثمّ فالقصر بـ(غير) فيه قوة لا نلمسها إذا كان الاستثناء بغيرها من الحروف.

وبالنظر إلى رواية: (إن ربك يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري) يكون هناك التفات من الغيبة إلى التكلم حيث انتقل من خطاب الغيبة في قوله صلى الله عليه وسلم: (إن ربك يعجب من عبده

إذا قال اغفر لي ذنوبي) إلى التكلم في قوله: (يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري) للدلالة على اختصاصه سبحانه وتعالى بمغفرة الذنوب دون غيره، والتأكيد على ذلك، وهذا الالتفات ينبه على سعة رحمة الله ومغفرته لعباده.

ومع النظر في الحديث الشريف، والوقوف عليه بشيء من التأمل نضع أيدينا على جملة من الراءات؛ فقد تكرر حرف الراء بشكل ملحوظ، والدلالة الصوتية لتكراره بما تنتجه من موسيقى مصدرها التكرير الذي هو خاصية هذا الحرف، فالتكرار ملمح مميز لصوت الراء؛ "لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في أثناء النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقًا لينًا يسيرًا مرتين أو ثلاثًا لتتكون الراء العربية"(١)، فتكراره يبعث الحركة في الحديث الشريف؛ تلك الحركة التي تلائم الحركة في السفر، كما أن تكراره يشي بملازمة هذه الأذكار عند كل سفر، وبذلك يحقق هذا الصوت نغمًا مناسبًا وملائمًا لجو الحديث العام، "فصوت الراء فيه صفة التكرار؛ فعند النطق به ساكنًا لتحديد مخرجه لا يقطع صوته اللسان بالتقائه تمامًا مع مقابله من الفك الأعلى، بل يظل مُرتعشًا به زمنًا ما كأنه يكرره"(٢)، وهذا التكرار يدل على التقلب والتحول؛ وبذلك يتناسب مع التحول في السفر من مكان لآخر، ويتناسب هذا التحول –أيضًا– مع حالة العبد من كونه محملًا بالذنوب إلى خالي الذنوب، وذلك مع ملازمته الأذكار ودعاء المولى –جل وعلا– بغفران ذنوبه، فتكرار صوت الراء ليس لمجرد التزيين، بل له دلالة واضحة منسجمة مع معنى الحديث؛ فغفران الذنوب لله وحده دون غيره، وتكرار صوت الراء بتردده العالي كان مناسبًا لتنبيه السامع إلى هذه الحقيقة.

(١) الأصوات اللغوية، تأليف دكتور/ إبراهيم أنيس (مطبعة نهضة مصر): ٥٧، وما بعدها.

(٢) التكرير بين المثير والتأثير، تأليف/ عز الدين علي (دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٧م): ٩.

المبحث الخامس

الترغيب في التوبة، والجهاد في سبيل الله. حديث: (إنّ الله عزّ وجلّ يعجبُ من رجلين يقتل أحدهما صاحبه...ثُمّ يدخلان الجنة).

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "إنّ الله عزّ وجلّ يعجبُ من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، وقال مرّة أخرى: ليضحك من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثُمّ يدخلان الجنة"(١).

يبين لنا رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحديث أن الله – عز وجل– يعجب من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثم يدخلان الجنة؛ فاجتماع القاتل والمقتول في الجنة شيء يثير العجب، فكيف يؤول أمر القاتل إلى الجنة؟! لا شك أنه أحسن التوبة إلى ربنا –عز وجل– فيسر له سببًا يوصله إلى الجنة، وهذا ما ذكره البخاري في صحيحه؛ فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة يقاتل هذا في سبيل الله فَيُقْتَلُ ثُمَّ يتوب الله على القاتل فيُسْتَشْهد"(٢)، وجاء في صحيح مسلم: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة" فقالوا: كيف يا رسول الله قال: "يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل فيُسْتَشهد، ثُمّ يتوب الله على القاتل فيُسلم، فيُقاتل في سبيل الله عز وجل فيُسْتَشهد"(٣).

---

(١) المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي: كتاب الجهاد، باب اجتماع القاتل والمقتول في سبيل الله في الجنة، رقم/ ٣١٦٥، جزء/ ٦، صـ ٣٨.

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: رقم/ ٢٨٢٦، جزء/ ٤، صـ ٢٤.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، رقم/ [١٢٨] (١٨٩٠) صـ٥٠٧.

من الملاحظ أن الحديث قد ورد في الصحيحين بلفظ (يضحك) دون (يعجب)، وقول أبي هريرة –رضي الله عنه– في رواية النسائي: (وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى لَيَضْحَكُ مِنْ رَجُلَيْنِ...) صريح في ثبوت الحديث بلفظي العجب والضحك، وبينهما تقارب في المعنى، وكل منهما صفة ثابتة لله –عز وجل– على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى وكماله، وعلى رواية البخاري ومسلم يكون معنى الحديث: أن المؤمن الذي يقاتل في سبيل الله فيقتله الكافر يدخل الجنة، ثم يتوب الله على القاتل الكافر فيسلم ويقاتل في سبيل الله فيقتل، ويدخلان الجنة.

اتضح مما سبق أن هذا الحديث الشريف قد ورد بروايات عدَّة، وقد اختلفت فيما بينها بزيادة بعض الألفاظ، وتقديم بعضها الآخر، وإذا تأملنا بلاغة الحديث –برواياته المختلفة– من حيث مبانيه ومعانيه نرى أسرارًا بلاغية كثيرة؛ وأول هذه الأسرار أن قوله: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْجَبُ مِنْ رَجُلَيْنِ) جاء حاملًا معنى اللهفة؛ لمعرفة الخبر والتشويق له، فالخبر جاء هنا للتشويق ومعرفة صفات هذين الرجلين، وليشوق من يسمع بخبرهما، ويفعل مثلهما من عبادة الله عز وجل، واستهلال الحديث الشريف بمقدمة تشتمل على التأكيد؛ لتقوية الكلام وتثبيته في ذهن السامع، ولا شك أن في هذا التأكيد ما يدل على عظيم مقدار هذا العمل عند الله عز وجل، ومجيئ قوله: (عز وجل) بعد لفظ الجلالة مناسب للمقام، ومن سمات بلاغة الكلام في هذا السياق؛ فمدلول (عز) أي غلب على مراده فلا معقب له فيه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله: (جل) أي: تنزه عما لا يصح قيامه به[1].

(١) ينظر: كنوز رياض الصالحين، لفريق من العلماء، رئيس الفريق العلمي أ. د/ حمد بن ناصر العمار (دار كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م): ٢٢/ ٢٧٣.

ومن اللافت للنظر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بدأ الحديث بالإجمال في قوله: (إِنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْجَبُ مِنْ رَجُلَيْنِ...) لما تحدثه هذه الطريقة التعبيرية من إثارة المتلقي وتشويقه إلى معرفة ما تم إجماله، حتى إذا ورد ثبت في نفسه وتمكن منها فضل تمكن؛ فإن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفة تفاصيله وإيضاحه، فإذا أُلقي تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم، وقد أفاد التعبير بهذا اللون البلاغي تفخيم وتعظيم شأن الرجلين أصحاب تلك الخصال السامية وتمييزهم من غيرهم بإعجاب المولى عز وجل بهما، وجمال التعبير بالمضارع (يعجب) دليل على تجدد الإعجاب (الرضا) من الله -سبحانه وتعالى- لكل من يعمل هذه الأعمال في أي مكان وأي زمان، والتعبير بـ(رجلين) نكرة؛ لما سبق بيانه من أن القصد ليس منصبًا على التعريف بالاسم العلم بقدر ما هو منصب على بيان الأفعال والصفات التي جعلتهما في هذه المنزلة حتى عجب منهما المولى جل وعلا.

وأقف عند التعبير عن القاتل بقوله: (يقتل أحدهما صاحبه) في رواية النسائي، وفي رواية البخاري ومسلم بقوله: (يقتل أحدهما الآخر) فقد يتوهم من النظرة الأولى أن القاتل كافر؛ أي: يقتل الكافر المسلم، إلا أن المدقق يجد أن القاتل قد يكون كافرًا أو مسلمًا عاصيًا، ويؤيد ذلك ما جاء في رواية النسائي؛ حيث عبر بالصاحب؛ والصاحب هو: "المتّصف بالصحبة، وهي المعية في غالب الأحوال"[(١)]، ويتعاضد مع هذا بناء الفعل (فيُقتل) لما لم يسم فاعله، فمجيء هذا الفعل على تلك الصيغة يشير إلى احتمال أحد الأمرين، ولو جاء الفعل للمعلوم لتعين فيه أحدهما دون الآخر، ولا يخفى في أن مجيء الفعل

(١) تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: ١٠/ ١٠١.

(فيُقتل) مبنيًا للمفعول يلقي بظلال الكلام على الحدث، ويصرف الانتباه إلى الفعل، وبهذا تتكامل الروايات في إيضاح المقصود.

ومن الملحوظ في هذا البيان النبوي إيثار التعبير بأداة العطف (ثم) في قوله: (ثم يدخلان الجنة)؛ فمن المعروف أن (ثم) أداة ربط تدل على معنى التشريك والترتيب والمهلة والتراخي، ولعل سر إيثار (ثم) على غيرها من أدوات العطف الدلالة على التفاوت بين حال القاتل حينما قتل صاحبه، وحاله حينما يدخل الجنة معه؛ فحينما قتل صاحبه كان مصيره إلى النار، وعندما تاب الله عليه دخل الجنة مع صاحبه، يستفاد من ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أراد التعظيم من أمر خاتمة المرء، وكيف أن الاعتبار بالخواتيم والنيات.

وبالتأمل في روايات الحديث الثلاثة يتضح أن رواية مسلم أكثر إيضاحًا وبيانًا من رواية البخاري والنسائي؛ فاجتماع القاتل والمقتول في الجنة من الأمور التي يستغرب لها الذهن، فالحديث أوله إبهام لا يفهم إلا بالبيان والإيضاح، والمتلقي عندما يسمع هذا القول –اجتماع القاتل مع المقتول في الجنة– تتوق نفسه إلى معرفة إيضاحه وبيانه؛ فيأتي التفصيل والبيان في رواية البخاري؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: (يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد)، بل إن رواية مسلم أكثر إيضاحًا وبيانًا؛ حيث أضاف (يتوب الله على القاتل فيسلم)، وفي اقتران الفعلين (فيقتل، فيستشهد) بالفاء التي تفيد أن ما قبلها سبب لما بعدها يكون القتل مسبب عن القتال في سبيل الله ومترتب عليه، وكذلك الشهادة، وتشير الفاء هنا إلى تحقيق كرم الله وفضله في تحقق الشهادة التي لا يهبها الله إلا لمن يستحقها، وذلك عقب القتل مباشرة من غير تراخ.

والمتأمل للتعبير النبوي في رواية البخاري يجد الجناس بين قوله: (يَقْتُل) وبين قوله: (فيُقْتَل) هذا الجناس يولد إيقاعًا صوتيًا مطربًا نتج عن اتحاد اللفظين مع اختلاف حركة حروفهما، ثم إن هذه الموسيقى الإيقاعية تجذب السامع إلى

ما وراءها من الفرق الدلالي العميق بينهما؛ فالأول مضارع مبني للمعلوم، والآخر مبني لما لم يسم فاعله؛ فبينهما جناس محرف؛ إذ الاختلاف في الحركات؛ فالأول جاء بفتح الياء والقاف ساكنة، والتاء مضمومة، والثاني ضم أوله وفتح ما قبل آخره، وهذا الاختلاف غيّر المعنى؛ فـ(يَقْتُل) أي: يعتدي أحدهما على الآخر بالقتل، و(يُقْتَل) أي: القتل في سبيل الله من قبل الأعداء؛ فالجناس يقوم على الترغيب في الإسلام، والجهاد في سبيل الله لنيل جنانه، ولا يخفى ما بين قوله: (يقاتل، والقاتل) من جناس مستوف؛ فاللفظ الأول فعل مضارع يدل على خوض المعركة والجهاد في سبيل الله، واللفظ الثاني اسم من قام بالقتل، والفاعل له، وبذلك تظهر فضيلة الجناس من حُسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، كما يعود إلى تمكين المعنى في ذهن السامع؛ فلا يخفى ما في اللفظين من تقارب يعطي الكلام جرسًا موسيقيًا يتسم بالسلاسة وعدم التكلف؛ وهذا مما يضفي على المعنى بلاغة وجمالا، وإذا نظرنا إلى المستوى الصوتي فنجد للمتجانسين أثر في تشويق النفس وتنشيط الفكر للوقوف على المراد من اللفظين المتشابهين، "فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلًا وإصغاءً إليها، ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر كان للنفس تشوق إليه"(١).

ومن يراجع روايات الحديث المختلفة يجد أن رواية البخاري عبرت بـ(فيُقتل) ورواية مسلم عبر فيها بـ(فيُستشهد)، ولعل سبب المغايرة في التعبير أن ذكر القتل في رواية البخاري (فيُقتل) يشير من طرف خفي إلى أن من قتله عقابه الولوج في النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...﴾ [النساء: ٩٣]، وجاءت رواية مسلم بـ(فيستشهد)؛ لتوضح أن جزاء من

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (دار إحياء الكتب العربية، مصر، ٢٠١٠م): ٤/ ٤١٢، وما بعدها.

يحارب في سبيل الله ينال الشهادة، ومن ثمّ دخول الجنة، فالتغاير في اللفظ هنا أدى إلى اكتمال الصورة؛ فيكون التوجيه النبوي قد اشتمل على بيان أن القتل عقابه القتل، واشتمل أيضًا على بيان أن من قُتل في سبيل الله فجزاؤه دخول الجنة، والتعريف بـ(أل) في لفظة (الجنة) للتعظيم والتفخيم من أمرها.

ومن الملاحظ في رواية مسلم الاستفهام: (فقالوا: كيف يا رسول الله؟!) الذي يبين حرص الصحابة على الاستفسار عما خفي عنهم، ولا يخفى عما وراء هذا الاستفهام من التعجب؛ فالصحابة يتعجبون كيف يقتل أحدهما صاحبه ويدخلان الجنة، ويلحظ النغمة التصاعدية في جملة الاستفهام، وهذه النغمة الصاعدة مناسبة للمعنى؛ فمن الطبيعي أن تكون نغمة التعجب صاعدة مرتفعة يرتقي فيها الصوت؛ ليعبر عن امتلاء النفس عجبًا من الصنيع الخارج عن مألوف السامع؛ وكأن هذا الاستفهام جاء كردّة فعل طبيعية للخبر المفاجئ والخارج عن المألوف، وهذا يحتاج إلى نغمة عالية تتناسب مع تعجب الصحابة لهذا الخبر؛ ومن ثمّ كان المناسب لهذا المعنى أن تكون نغمة الأداء مرتفعة صاعدة؛ لتؤدي إلى إيصال معنى التعجب، "وهذا يدل بشكل صريح على أثر التنغيم في خروج التعبير الاستفهامي عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى لا تتضح إلا من خلال الأداء الذي يُمتلأ بشحنات إضافية من الموجات الصوتية"(١).

ويبدو أسلوب الحوار في رواية مسلم: (قال...، فقالوا...، قال...) وما فيه من شد انتباه السامع للمعنى المقصود، وحرص الصحابة على الاستفسار من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عما خفي عنهم، ويلحظ في هذه الرواية

(١) التنغيم وأثره عن المعاني النفسية، د/ فرهاد عزيز محيي الدين (مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد/ ١٠، العدد/ ١، السنة/ ٢٠١٥م): ٩٤.

التدرج في التعبير؛ (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ) فتقديم الإسلام على الاستشهاد يعد من باب التدرج والترقي؛ فالإسلام أولًا، ثم ينعم الله على من يشاء من عباده بنيل الشهادة، وفي الجمع بينهما مراعاة نظير؛ فكلاهما يدخلان الجنة، كما أن الاستشهاد لا يكون إلا بسبب الإسلام، ففيه حثٌّ على الإسلام، وترغيب في التوبة، وتحفيز إلى الجهاد في سبيل الله تعالى لينال مغفرته، ويحوز شرف رضاه، وبهذا يتضح أن تعبيرات هذا الحديث الشريف جمعت بين سعة الدلالة وغزارة المعنى مع اختصار عباراته، والمتأمل في هذا الحديث برواياته المختلفة يلحظ أن التعبير النبوي الشريف تميز بإتقان شديد في نسج حروف كلماته وتناسقها والعناية بها؛ لتشكل جرسًا مقصودًا أحدث وقعًا لدلالتها الصوتية في الأسماع؛ حيث يلمح تردد صوت القاف الانفجاري المهموس الذي أضاف وقعًا عنيفًا في الأذن، وجاء مناسبًا للقوة التي نحسها عند مقاتلة أحدهما للآخر، مما أوجد أثرًا عمل على تقريب المعنى للقلوب في أحسن صورة وأدق تعبير.

المبحث السادس

استعظام الله لشأن الفئة المقيدة بالسلاسل ورضاه عنهم. حديث: (عَجِبَ الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل).

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (عَجِبَ الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل)[١].

يبين الرسول –صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث الشريف أن الله قد عجب –وعجبه سبحانه يليق بذاته– من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل، فقد كانوا يحاربون الإسلام ويقاتلون المسلمين ومع هذا فإنهم سيدخلون الجنة؛ أي أنهم يؤسرون في الجهاد، فيكون هذا الأسر سببًا في إسلامهم ودخولهم الجنة؛ فهؤلاء جاؤوا لمحاربة الإسلام ومع هذا سيدخلون الجنة إن أمرهم هذا يدعو إلى العجب!؛ وفي هذا دلالة على أن الجهاد في سبيل الله غايته إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإسلام، ويتعاضد مع ذلك المعنى قوله –صلى الله عليه وسلم–: (يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد)[٢]، وهذا الحديث يتوافق مع العبارة الدّارجة على ألسن بعض الناس: (يؤجر المرء رغم أنفه) وهو ذو معنى صحيح يؤكده الحديث الشريف، يتداولونه مطمئنين إلى رحمة الله تعالى وعفوه ومغفرته ورضوانه.

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، رقم/ ٣٠١٠، جزء/ ٤، صـ٦٠.

(٢) السابق: كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم، ثم يسلم، فيسدد بعد ويقتل، رقم/ ٢٨٢٦، جزء/ ٤، صـ ٢٤.

فأغلب شراح الحديث يقصدون من هذا الحديث من حاربنا من الكفار، وأسرهم المسلمون، وعاملوهم بالحسنى، فأسلموا ودخلوا الجنة؛ "قال ابن الجوزي معناه: أنهم أسروا وقيدوا، فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوه طوعا ومن ثمّ دخلوا الجنة، فكان الإكراه على الاسر والتقييد هو السبب الأول، وكأنه أطلق على الإكراه التسلسل، ولما كان هو السبب في دخول الجنة أقام المسبب مقام السبب، وقال الطيبي: ويحتمل أن يكون المراد بالسلسلة الجذب الذي يجذبه الحق مَنْ خَلْصِ عباده من الضلالة إلى الهدى ومن الهبوط في مهاوي الطبيعة إلى العروج للدرجات؛ لكن الحديث في تفسير آل عمران يدل على أنه على الحقيقة. ونحوه ما أخرجه من طريق أبي الطفيل رفعه: رأيت ناسا من أمتي يساقون إلى الجنة في السلاسل كرها، قلت يا رسول الله من هم؟ قال: قوم من العجم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم في الإسلام مكرهين، وأما إبراهيم الحربي فمنع حمله على حقيقة التقييد، وقال المعنى: يقادون إلى الإسلام مكرهين فيكون ذلك سبب دخولهم الجنة، وليس المراد أن ثمّ سلسلة، وقال غيره: يحتمل أن يكون المراد المسلمين المأسورين عند أهل الكفر يموتون على ذلك أو يقتلون فيحشرون كذلك، وعبر عن الحشر بدخول الجنة لثبوت دخولهم عَقِبه، والله أعلم"[1].

من خلال النص السابق أرى أنه ينطبق على هذا الحديث ما قيل في فضل الإيجاز في الكلام من حصول فائدة؛ لأن النفس تذهب في تقديره كل مذهب، ولو ورد المراد من الكلام ظاهرًا لاقتصر به على البيان الذي تضمنه؛ فالإيجاز لا يكون لمجرد الاختصار، ولكن للدلالة على أن المسكوت عنه في الكلام (المحذوف) شيء لا يحيط به الوصف، فلو عُيّن شيء اقتصر عليه،

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف/ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق/ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ): ٦/ ١٤٥.

وربما خف أمره عند السامع؛ فالحديث ينطوي على كثير من المعاني والدلالات مسكوت عن تعديدها ووصفها لترك مجال استيعاب كل ما يمكن أن يندرج تحت هذه الأمور دون تحديد يفسد غرض الكلام، فلا يخفى ما في الحديث الشريف من بلاغة وقوة في التعبير تولدت عن الإيجاز، ولا شك في أن التعبير بقوله: (يدخلون الجنة) تختزل داخلها حياة كاملة في الدنيا من الدخول في الإسلام، وعمل ما يرضي المولى عز وجل...إلخ، ومن ثمّ دخول الجنة.

ويُفهم من خلال النص السابق أن أقوال العلماء قد تعددت عن السلاسل؛ فمنهم من قال أنها على الحقيقة؛ أي: يدخلون الجنة وهم مقيدون بالسلاسل، ومنهم قال أنها على المجاز؛ أي: مجازًا عن الاكراه؛ فقوله: (يدخلون الجنة في السلاسل) أي: يدخلون الإسلام مكرهين، أو أنهم يدخلون الجنة بالإسلام وكانوا قبل أن يسلموا في السلاسل، فالتعبير عن دخولهم الإسلام بدخولهم الجنة لأنه سببها ومن دخله دخل الجنة، وذلك على سبيل المجاز المرسل، وعلاقته المسببية؛ حيث ذكر المسبب (الجزاء)، وأراد السبب، والقرينة في قوله: (بالسلاسل) التي دلت على إكراههم للدخول في الإسلام، ولا يمنع أن تكون (السلاسل) مجازًا عن الإكراه؛ وهو طريق الأسر والتقييد بأي شيء كان، وهم مكرهون على الأسر، فكأن الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول لدخولهم في الإسلام، فأطلق على الإكراه التسلسل الذي كان هو السبب في دخولهم الجنة فقام المسبب مقام السبب.

ودخولهم الجنة بالسلاسل ليس المقصود منه إكراههم على الدخول في الإسلام بالقوة والسيف؛ قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ [البقرة: ٢٥٦] فالدين الإسلامي بين واضح لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه؛ فدخولهم الجنة بالسلاسل إنما يقصد به أن السلاسل ستكون طريقًا وسببًا لدخولهم الإسلام ومن ثمّ دخولهم الجنة، وقد كان هذا من خلال الغزوات والمعارك التي حدثت بين المسلمين والكفار؛ حيث كان يقع أسرى من الكفار بين أيدي المسلمين،

وهؤلاء الأسرى يتم تقييدهم بالسلاسل، -وهذا معنى السلاسل في الحديث-، ثم يأخذ المسلمون هؤلاء الأسرى فيسترقونهم ويعيشون بين المسلمين فيتعرفون أحكام الإسلام وسمو شريعته وعظمتها وتظهر لهم دلائل صدق رسول الله ومعجزته، ويرون أخلاق الإسلام عن رضا وقناعة واختيار، فكانت السلاسل التي اقتيد بها هؤلاء الناس سببًا في عيشهم بين المسلمين وتعرفهم على الإسلام عن قرب دون تشويه، فدخلوا في دين الإسلام، ومن ثمّ دخلوا الجنة، فصارت السلاسل هي السبب في دخولهم الجنة؛ ويؤيد هذا الوجه ما روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه ذكر قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١١٠] ثم قال: "خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام"(١)؛ فقد وصف هؤلاء الآسرون بأنهم خير الناس للناس؛ إذ كانوا سببًا في هداية هؤلاء المأسورين، وصدّر -رضي الله عنه- كلامه بالآية؛ لأن هذا مظهر من المظاهر الذي تتجلى فيه خيرية الأمة.

ولا يمنع أن يكون المجاز في الحديث من قبيل المجاز المرسل باعتبار ما كان؛ فذكر السلاسل باعتبار ما كانوا عليه في الدنيا، وعلى ذلك يكون في الحديث حذف؛ حيث حذف الفعل الناسخ مع اسمه، ويكون التقدير: (بالسلاسل التي كانوا بها مقيدين) أي حال كونهم في الدنيا؛ وذلك للدلالة على انتهاء الحال الماضية والدخول في عهد جديد؛ وحُذف الحال الماضية لتناسي الحال الصعبة التي كانوا عليها وقت الأسر؛ فلا أحد يدخل الجنة بالسلاسل وإنما كانوا مقيدين بها في الدنيا.

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب (كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران: ١١٠] رقم/ ٤٥٥٧، جزء/ ٦، صـ ٣٧.

على أية حال فتعجب المولى –عز وجل– في هذا الحديث يدل على استعظام الله لشأن هؤلاء ورضاه عنهم، ومن ثمّ ترغيب الكفار للدخول في دين الإسلام؛ وبناء عليه يُفهم من ذلك أن كل مسلم كان بعيدًا عن الحق سيء التصرف أراد له الله الهدى فرزقه التوبة الخالصة وحُسنَ الإنابة وقبضه عليهما فمات كان من أهل الجنة؛ وفي ذلك بيان عظمة الإسلام وسماحته؛ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة تشرح الصدر وتدفع إلى كمال الإيمان وإلى حسن الظن بالله –تعالى– الذي يريد لنا أن نكون من أهل الجنة، ويعبّد لنا الطريق إليها؛ من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥] فإذا غفر الله لنا أسوأ ما نعمل حين نتوب ونستغفره، فسوف يغفر لنا من باب أولى صغائر الذنوب.

المبحث السابع

نشأة الشاب على الخير واجتناب الشر. حديث: (إنّ الله ليعجب من الشّابّ ليست له صبوة).

عن عُقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله ليعجب من الشّابّ ليست له صبوة"(١)(٢).

مما لا شك فيه أن الإنسان في مرحلة الشباب عادة ما يكون له ميل إلى اللهو واللعب، فإذا منّ الله عليه وأقبل على العبادة، وبعد عن اللهو وعن اللعب وعما يوجبه الصبا، فإن ذلك غاية العجب، وذلك فضل الله عليه؛ فالله -سبحانه وتعالى- سلط على الإنسان حب الشهوات، وبالأخص في بداية شبابه، فعقله ما زال ضعيفًا...إلخ، ومع ذلك فإن شهوته قوية، فإذا تغلب عليها فقد انتصر، وكان محلًا للإعجاب به، ولهذا يستحق أن يظل في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

وقرن التعجب بالشاب الذي ليست له صبوة؛ لحسن اعتياده للخير وقوة عزيمته في اجتناب الشر في هذه المرحلة من العمر، ولأن العبادة في هذا العمر أشق؛ لكثرة الدواعي وقوة البواعث التي تثيره على إتباع الهوى، فملازمته العبادة مع ذلك أشد وأدل على غلبة التقوى؛ "قال حجة الإسلام: وهذا عزيز نادر فلذلك قرن بالتعجب، وقال القونوي سره: أن الطبيعة تنازع الشاب وتتقاضاه الشهوات من الزنا وغيره وتدعوه إليها على ذلك ظهير، وهو الشيطان، فعدم صدور الصبوة منه من العجب العجاب"(٣)، وجاء في الحديث الصحيح أن الشاب الذى نشأ في

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، (١٤٦ - ٢٤١هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون: رقم/ ١٧٣٧١، جزء/ ٢٨، صـ ٦٠٠.

(٢) الصبوة: الميل إلى اللهو والجهل والفتوة، واتباع الهوى والميل عن طريق الحق. ينظر: لسان العرب: صبا.

(٣) فيض القدير (شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير): ٢/ ٣٣٤.

طاعة الله، ولم ينحرف بأنه سيكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[١]، وخصوصًا في هذا الزمن الذي غلبت فيه الفتن، وظهرت فيه المحن، وكثر فيه الطاعنون في الدين أو النازحون إلى الشهوات؛ فالشاب في فترة شبابه تتجاذبه الغرائز والشهوات، وقد يضعف العقل أمام سلطانها، وإذا خاف الشاب ربه من تلبية نداء غرائزه بدون حدود عاش في جهاد وعراك ومغالبة لينتصر على شهواته، وهذا الجهد المبذول يقدره الله حق قدره، ويكافئ عليه صاحبه بما يتناسب مع إيمانه وخوفه من ربه[٢].

وتعجب الله من الشاب الذى ليست له صبوة يراد به الرضا عنه رضاء كبيرا، مما يدعونا إلى مجاهدة السوء مهما كانت مغرياته، فإعجاب المولى –عز وجل– من هذا الشاب إعلاء لشأنه من تعفف عن الحرام مع وجود الدوافع القوية إليه، وكثرة الإغراءات المساعدة عليه في هذه المرحلة من العمر، لا سيما وإن كان يمتلك القوة والقدرة، ولعل اختصاص الشاب العفيف بالذكر دون ذكر الشابة العفيفة لا يعني أن الله –تعالى– لا يعجب من عفافها، ولكن لأن الشاب أكثر جرأة على الميل والانحراف ومتابعة الهوى.

---

(١) الحديث: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه". الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد. رقم/ ٦٦٠، جزء/١، صـ ١٣٣.

(٢) ينظر: القطوف الدانية، تأليف/ أبو هاشم صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي (مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية)، ورقم الجزء هو رقم الدرس: جزء/ ١١، صـ ٢٧.

وأول ما يطالع الناظر في هذا البيان النبوي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صُدر كلامه بـ(إن) المؤكدة التي تقذف في قلب سامعها عنايته -صلى الله عليه وسلم- بمعناها وتأكد حرصه على تثبيت ما دخلت عليه؛ لأنها تمهد إلى أن كلامًا مهمًا يأتي عقبها، فهي تنبه المخاطب إلى أن خبرًا ما من الأهمية بمكان سيلقى إليه، وعليه أن يُقبل عليه بكل حواسه لتلقيه حتى يتمكن هذا المعنى في نفسه، خصوصًا وأن مضمون الخبر يحتاج إلى شحذ الهمم والاستعانة بقوة الإيمان، وقد اتخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- من التوكيد وسيلة لتمكين المعنى في نفوس السامعين؛ والصحابة ليسوا في حاجة إلى تأكيد؛ إذ إنهم غير مترددين ولا شاكين، إلا أن التوكيد أتي لبيان أهمية مضمون الكلام، كما أن هذا التوكيد يظهر من طرف خفي مدى مخافة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أمته، ويجعل السامع يضع تلك المخاوف نصب عينيه فلا يغفل عنها، وجاءت اللام في (ليعجب) لمزيد من التأكيد، والتعبير بالمضارع (يعجب) يدل على تجدد الإعجاب (الرضا) من الله -سبحانه وتعالى- لكل من ينتصر على شهواته ورغباته، فيلجم نفسه ويكبح جماحها في أي زمان وأي مكان، وهذا الرضا الإلهي بمثابة حث الشباب على الابتعاد عن اتباع الغرائز والشهوات، والتقرب إلى الله -عز وجل- بالطاعات والأعمال الصالحة.

ولعنا نلمح في هذا الحديث الشريف أن (ليس) لا تقتصر دلالتها على الحال فقط، بل تدل على الاستقبال بدلالة السياق؛ لأن الأعمال التي يرضا عنها الله -عز وجل- لا تقتصر على زمان ومكان معينين، وإنما في كل وقت وكل مكان، فلم يرد بالحديث زمن الحال وحسب، بل امتدت دلالته لتشمل ما بعد زمن التكلم؛ لأن ترك اتباع الهوى والغرائز توجيهًا أخلاقيًا يمس سلوكيات المسلم ويقومها، وهذا من أهداف الشريعة الإسلامية.

وفي التعبير بقوله: (صبوة) دون غيره من الألفاظ دقة وعناية ومقصد؛ وذلك لما يحمله هذا اللفظ من أسرار بلاغية؛ لأن الصبوة بداية الميل والحنين

إلى اللهو؛ فعبر النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذا اللفظ دون غيره ليدل على أن الله –سبحانه وتعالى– يرضى عن الشاب الذي ليس له أي ميل إلى الهوى، وهي المرة منه؛ أي ليس له ميل إلى اللهو في هذه الدّنيا، بل هو منقطع إلى الآخرة، وقد ذكر الإمام الغزالي هذا الحديث في كتابه: إحياء علوم الدين عند حديثه عن التوبة، وقال: "اعلم أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر... وهذا عزيز نادر..." [(١)]؛ فجاءت هذه الكلمة بما فيها من قوة في اللفظ وثراء في المعنى ما لا تستطيع كلمة أخرى الإتيان به؛ وكأنها تفصح من خلال معناها اللغوي عن أن بداية الانحراف يبدأ من حيث يشعر الإنسان بالملل والكسل عن العمل الصالح، ومن ثمّ الانشغال بالأمور الدنيوية من اتباع الغرائز وحب الشهوات...إلخ، فهذه اللفظة (صبوة) أبانت عن معان كثيرة وأفكار متعددة؛ وهذا يدلنا على أن من خصائص الأسلوب في هذا الحديث: الإيجاز الذي هو تأدية المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وهو لا يأتي إلا بمعرفة تامة بدلالة المفردات، وإدراك أحوال المخاطب، وقد اجتمع هذا كله في كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم– على أكمل وجه، فإذا تأملنا كلامه–صلى الله عليه وسلم– نجد أحاديثه وإن نظمت بألفاظ قليلة لكنها اشتملت على كثير من المعاني والحقائق والأسرار الجمالية، وهذا ما جاء وأكده الإيجاز في قوله: (إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة)؛ فلقد أدت جملة (ليست له صبوة) جمالًا بارعًا في إيصال المعنى؛ فهي تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل، لا يستطيع الإنسان التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة، فلم نجد فيه اختصارًا مخلًا أو ضعفًا في التأليف.

(١) إحياء علوم الدين، تأليف/ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (دار المنهاج، السعودية، ط الأولى، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م): ٢/ ١٧٦.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كانت هذه الدراسة تحت عنوان: (من بلاغة البيان النبوي في الأحاديث التي عجب فيها ربنا -عز وجل- بأعمال العباد) وقد تبين من خلالها:

- أن العجب صفة من صفات الله -تعالى- التي يثبتها أهل السنة والجماعة على الوجه اللائق به -عز وجل- وهي تدل على محبته تعالى لهذا الفعل الذي هو محل التعجب، وتعجبه سبحانه ليس كتعجب المخلوق؛ فالعجب عند البشر هو استعظام الأمر وإكباره، وهو في حق الله صفة من صفاته الفعلية الخبرية الثابتة له بالكتاب والسنة، لكن بالكيفية التي تليق بجلاله سبحانه؛ فيستحيل عليه -جل وعلا- التعجب الذي يخفى على صاحبه معرفة الأسباب، فسبحانه وتعالى عنده علم الأسباب، وتعجبه من أي عمل يراد به الرضا عنه رضاء كبيرا.
- اتضح أن البيان النبوي الشريف كان يقصد في كل سياق من السياقات التي تم الاستشهاد بها إلى الترغيب في الأعمال الصالحة التي يرضا عنها ربنا عز وجل، والتي يتقرب بها العبد إليه جل وعلا، وبها يكسب زيادة الأجر، والترهيب من طرف خفي من تركها، ويمكن تلخيص أهم هذه الأعمال في: الخوف الحقيقي من الله في كل وقت حتى في السر، والإخلاص في العبادة، وقيام الليل، وإكرام الضيف، والتسمية عند الشروع في ركوب وسيلة السفر، والحمد والتكبير...إلخ، والاعتقاد والتسليم بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وحسن التوبة والرجوع إليه سبحانه وتعالى، والجهاد في سبيله تعالى، وعدم الفرار من المعركة لنيل مغفرته، وحوز شرف رضاه؛ فالجهاد في سبيله تعالى غايته

إخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإسلام، والتغلب على الشهوات خصوصًا في مرحلة الشباب.

- البلاغة النبوية قمة البلاغة العربية؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لسانًا، وأحاديثه قد حوت صنوف البلاغة، وألوان الجمال والفصاحة، وقد اتضح أن أحاديثه –صلى الله عليه وسلم– قد عبرت أدق تعبير عن سمو النفس التي خرجت منها، وبينت المنبع العذب الذي نهلت منه، وقد جاءت على درجة عالية من الوضوح في شتى ضروب التعبير؛ فالرسول – صلى الله عليه وسلم– لا ينطق عن الهوى؛ إذ أحسن اختياره ما يلائم تبليغ غرضه ومقصده في خطاب خالد يعمل به كل من يأتي بعده في مختلف الأزمان، كما أنه يتنوع بتنوع المواقف والأحوال، وبتنوع الشخصيات والظروف المتعلقة بكل منها، وبتنوع الأغراض التي يرمي إلى تحقيقها؛ فالحديث الشريف يعد آية من آيات ائتلاف الألفاظ مع المعاني؛ وذلك باختيار الألفاظ ومواءمتها لما يتطلبه المقام، فكان التلاؤم والانسجام؛ لذا جاءت الجمل متوازنة، موجزة، سهلة، واضحة، بعيدة عن الغموض، خالية من التعقيد مع تأدية المعنى أداء كاملًا وصادقًا في الدلالة، والمواطن الجمالية تتجلى واضحة، وهو ما يسهم في تحقيق العناصر الدلالية للمعنى المراد بأبلغ صورة وأوجز عبارة؛ فمن جماليات الأسلوب في الأحاديث – محور البحث– الاعتماد على الاقتصاد اللغوي؛ وذلك لإعطاء مجالًا أوسع من الأفكار والمعاني.
- تعد الدراسات البلاغية مفتاحًا من مفاتيح فهم الأحاديث النبوية الشريفة، وطريقًا من الطرق الموصلة إلى مقاصدها، وبعبارة أخرى: يعد علم البلاغة من الأدوات الكاشفة عن المراد من الحديث وسياقه؛ وبالتأمل في الأحاديث محل الدراسة يتضح أن الأساليب البلاغية لم تكن مقصودة بذاتها، وإنما هي وسيلة يفرضها السياق، واتضح أن اجتماع أكثر من فن بلاغي في جملة

واحدة أمر لا غرابة فيه؛ فالنكات البلاغية لا تتزاحم كما يقول البلاغيون، بل إنها تزيد من تقوية المعنى وتقرير المراد من الكلام، وقد لوحظ ندرة الصورة البيانية في الأحاديث محور البحث؛ فالمعنى المقصود منها يحتاج إلى الطريق المباشر والواضح في التعبير، لذا كان الأسلوب الخبري هو الغالب على الأسلوب الإنشائي؛ فالأسلوب الخبري يفيد التقرير والتوضيح، وهو الذي يتلاءم مع الإخبار عن الأعمال التي تعجب المولى عز وجل، ولبيان أن هذه الأخبار حقائق مؤكدة لا تقبل الجدال أو المناقشة، ولذا جاء الخبر مؤكدًا أكثر من مرة، وجاء الأسلوب الإنشائي في الأحاديث -محور البحث- ليعكس حفاوة الله بعباده المتقين، بالإضافة إلى ما فيه من إثارة ذهن المخاطب، ولفت انتباهه لأهمية الحديث.

- تميزت الأحاديث محل الدراسة ببراعة الاستهلال؛ حيث بدأت معظمها بأسلوب التأكيد؛ لبيان أن من يقوم بهذه الأعمال ينال رضا الله وأنه أمر محقق وواقع، وحتى لا يتشكك المرجفون في صدق هذه الأمور، وقد اعتمدت أغلب الأحاديث محل الدراسة على أسلوب الحوار، ومما لا شك فيه أنه أسلوب محبب إلى النفس، يضفي على النص حيوية، ويدفع الملل والشرود، وكان التفصيل بعد الإجمال من الروابط الدلالية القوية بين عناصر الحديث التي تؤكد ترابطه وتماسكه، وكان له دور في تمكين المعنى وتقويته، وإظهار القضية بشكل جلي، فيؤكد على وجودها بأن يظهرها مفصلة بعد أن أوردها مجملة مكثفة، فضلًا عن تشويق المتلقي وتهيئة ذهنه لمعرفة تفصيل المعنى بعد إبهامه، كما كان التأكيد بالحرف واسمية الجملة بجانب تنكير المسند إليه ووصفه بالجملة الفعلية أساليب بلاغية تتفق مع مهمة التبليغ والإقناع، وأسهمت في إبراز الأعمال التي يرضا عنها ربنا عز وجل، وساعدت المتلقي في معرفتها تشويقًا وإثارة إلى القيام بهذه الأعمال الدالة على كمال الإيمان، مما يجعل القائم بها ينال رضا الله -تعالى- في الدنيا والآخرة.

– اتضح أن التنغيم المصاحب لأسلوب الأمر لا يأتي بوتيرة واحدة على طول مجريات الحدث الكلامي؛ وإنما يتلون بحسب السياق؛ فالأمر لا يؤدي بنغمة صاعدة في كل سياقاته؛ إذ إن من الأمر ما يؤدي بنغمة هابطة؛ وقد ظهرت النغمة الصاعدة في قوله: (انظروا إلى عبدي)، وظهرت النغمة الهابطة في قوله: (اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، وكثيرًا ما نلحظ تكرار صوت معين له صفته المعبرة يشيع في أرجاء الحديث، وكأنه يلفت إلى معنى مهم؛ ولا ريب أن هذا التكرار له صلة وثيقة بالمعنى، وقد أثبتت الدراسة ما لتكرار الحروف والكلمات من قيمة ساحرة في تقوية الجانب الدلالي، وإبراز الجانب البلاغي، وفيه دليل على ذوق النبي –صلى الله عليه وسلم– ونظرته السوية، فهو أدرى بخفايا اللغة وأسرارها، كما أفصح البحث عن روعة إيقاع الحديث الشريف وموسيقاه؛ من حيث اختيار الحروف المناسبة للحدث، ومن حيث تجانسها وتقاربها، فضلًا عن توازي فقر الحديث الشريف وتوازنها؛ لذا كانت له المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم؛ حيث الموازنة الدقيقة والمتناهية بين الفقر والقرائن، فترتيب الجمل في الحديث الشريف عامة وفي الدعاء النبوي خاصة له بلاغته الواضحة ولطائفه الخفية، ومردُّ ذلك كله إلى ما تقتضيه المعاني وما ترمي إليه النفوس.

أسأل الله –عز وجل– أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن يتقبله إنه سميع مجيب.

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د/ أحمد محمد محمد عبد الفتاح

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا:

١- أثر التكرار في التماسك النصي مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د/ خالد المنيف، للباحثة/ نوال بنت إبراهيم الحلوة (جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد/ ٨).

٢- إحياء علوم الدين، تأليف/ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (دار المنهاج، السعودية، ط الأولى، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م).

٣- الأصوات اللغوية، تأليف دكتور/ إبراهيم أنيس (مطبعة نهضة مصر).

٤- الأصوات اللغوية (رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية) تأليف الأستاذ الدكتور/ سمير شريف إستيتية، (دار وائل، عمان، الأردن، ط الأولى، ٢٠٠٣م).

٥- بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري (سنة الولادة/سنة الوفاة ٣٨٤هـ)، تحقيق/ محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٦- بدائع الفوائد، تأليف/ أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد بنِ أبي بكر بْنِ أَيُّوب ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ (٦٩١ - ٧٥١) تحقيق/ علي بن محمّد العمران، إشراف/ بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد (دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤٢٥هـ).

٧- بديع التراكيب في شعر أبي تمام، دكتور/ منير سلطان (منشأة المعارف بالإسكندرية، ط الثالثة، ١٩٩٧م).

٨- تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق/ عبدالستار أحمد فراج (مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

٩- تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، تأليف/ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
١٠- التكرير بين المثير والتأثير، تأليف/ عز الدين علي (دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٧م).
١١- التنغيم وأثره عن المعاني النفسية، د/ فرهاد عزيز محيي الدين (مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد/ ١٠، العدد/ ١، السنة/ ٢٠١٥م).
١٢- جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق/ أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
١٣- الجامع الصحيح للبخاري، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة، ط الأولى، سنة ١٤٢٢هـ).
١٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر (دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط الأولى، ١٤٢٢هـ).
١٥- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، للعلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي (المتوفى: ١٠٥٧هـ) (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان).
١٦- سنن أبي داود، تصنيف الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (٢٠٢هـ - ٢٧٥هـ)، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، (دار الرسالة العالمية، ط الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

١٧- سنن الترمذي، تأليف/ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق:/ أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

١٨- السنن الكبرى، تأليف/ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

١٩- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، تأليف/ أبو عبد الرحمن أحمد ابن شعيب النسائي، تحقيق/ مكتب تحقيق التراث، (دار المعرفة، بيروت، ط الخامسة، ١٤٢٠هـ).

٢٠- شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، لفضيلة الشيخ العلامة/ محمد ابن صالح العثيمين (مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ).

٢١- شرح العقيدة الواسطية، ويليه ملحق الواسطية، تأليف/ محمد بن خليل حسن هرّاس (المتوفى: ١٣٩٥هـ)، ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق/ علوي بن عبد القادر السقاف، (دار الهجرة للنشر والتوزيع، الخبر، ط الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

٢٢- شرح المفصل للزمخشري، تأليف/ يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد ابن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ)، قدم له الدكتور: إميل بديع يعقوب (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

٢٣- شرح سنن النسائي المسمى «شروق أنوار المنن الكبرى الإلهية بكشف أسرار السنن الصغرى النسائية»، تأليف/ محمد المختار بن محمد بن أحمد مزيد الجكني الشنقيطي (المتوفى في المدينة: ١٤٠٥هـ)، (مطابع الحميضي (طبع على نفقة أحد المحسنين)، ط الأولى، ١٤٢٥هـ).

٢٤- شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، تأليف/ محمَّدُ بنُ عزِّ الدِّينِ عبدِ اللطيف بنِ عبد العزيز بن أمين الدِّين بنِ فِرِشْتَا، الرُّوميُّ الكَرمانيّ، الحنفيُّ، المشهور بـ ابن المَلَك (المتوفى: ٨٥٤هـ)، تحقيق ودراسة/ لجنة مختصة من المحققين بإشراف/ نور الدين طالب، (إدارة الثقافة الإسلامية، ط الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).

٢٥- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١هـ)، ترقيم وترتيب الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقي (ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

٢٦- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (دار إحياء الكتب العربية، مصر، ٢٠١٠م).

٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف/ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق/ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ).

٢٨- الفتوحات الربانية على الأذكار النّواويّة، تأليف/ العالم العلامة مفسر كلام الله تعالى وخادم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي (المتوفى: ١٠٥٧هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته/ عبد المنعم خليل إبراهيم (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان).

٢٩- الفروق اللغوية للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه/ محمد إبراهيم سليم (دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م).

٣٠- فيض القدير (شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير) للعلامة محمد عبدالرؤوف المناوي، ضبطه وصححه/ أحمد عبد السلام، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الاولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٣١- القطوف الدانية، تأليف/ أبو هاشم صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي (مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية).

٣٢- كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف العلم العلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي المتوفي سنة ٧٧٠هـ (المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٣م).
٣٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ – ٥٣٨هـ)، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الأخيرة، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م).
٣٤- كنوز رياض الصالحين، لفريق من العلماء، رئيس الفريق العلمي أ. د/ حمد بن ناصر العمار (دار كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م).
٣٥- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، تأليف/ محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني (المتوفى: ٧٨٦هـ) (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، طبعة أولى: ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م، طبعة ثانية: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م).
٣٦- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ)، تحقيق/ ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد (دار التوفيقية للطباعة).
٣٧- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، تأليف/ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، (مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م).
٣٨- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف/ ابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق/ محمد حامد الفقي، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م).

٣٩- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف/ علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ) (دار الفكر، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).
٤٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف/ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (١٦٤ - ٢٤١هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، إشراف د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).
٤١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط/ عبدالسلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
٤٢- المفردات في غريب القرآن، تأليف/ أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بـ«الراغب الأصفهاني» (مكتبة نزار مصطفى الباز). (د. ط، ت).
٤٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة (الدار العربية للكتاب، تونس، ط الثالثة، ٢٠٠٨م).
٤٤- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف/ أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الثانية، ١٣٩٢هـ).
٤٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف/ أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق/ طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي (المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).